كلمة الغلاف الأخير

من أين أبدأ لأقدّم هذه الرواية المتلألئة بجدّتها، الغريبة في تألّقها والمليئة بالرموز والإشارات؟ والحيرة تأتّتْ من حقيقة كونها نصًّا روائيًّا لا يدع لك أن تنساه أو تهمله بعد الفراغ منه، بل إنه يبقى يسكنك بشكل أو بآخر، ويندسّ في ثنايا ذهنك وقلبك وما بينهما من روح أو وجود؛ يثير فيك أسئلة لا تريد أن تسألها ويوحي إليك بأجوبة ملغزة لا تريح، فلا تجد مناصًا من العودة إليه والغرق، طواعيةً، في أمواج لغته الصافية، المتلاطمة، المخدّرة.

إنها رواية نادرة المثال، هذه " شمس القراميد" لمحمد علي اليوسفي، تكاد تميل بك الأفكار إلى اعتبارها ملحمة شعرية متأسسة على منوال الملاحم الإغريقية، إلا أن أنفاسها ذات العطر المعاصر، وما يتراءى لبصيرتك من صور الواقع المألوف الذي تعرفه، تزيح هذه الظنون سريعًا وتنهض " شمس القراميد" أمامك بعد ذلك رواية راسخة متحدّية حديثة، ذات تعبير ونبرة متميزين ومختلفين تمامًا."

فؤاد التكرلي

محمد علي اليوسفي

شمس القراميد

رواية

إهداء

إلى ابنتي دانية،
مع ميلادها انبثقت الفكرة؛
وإلى روح والدي،
مع غيابه،
حادت بي الفكرة إلى عراء المواجهة...

تقديم بقلم فؤاد التكرلي

" يا سادة،
لقد بدأ العالم بحركة حنون،
فمن أين أبدأ؟"
(من مقدمة "شمس القراميد")

هكذا ساءلتُ نفسي أنا الآخر، مثلما فعل الراوي في رواية (شمس القراميد)، من أين أبدأ لأقدّم هذه الرواية المتلألئة بجدّتها، الغريبة في تألّقها والمليئة بالرموز والإشارات؟ والحيرة تأتّتْ من حقيقة كونها نصًّا روائيًّا لا يدع لك أن تنساه أو تهمله بعد الفراغ منه، بل إنه يبقى يسكنك بشكل أو بآخر، ويندسّ في ثنايا ذهنك وقلبك وما بينهما من روح أو وجود؛ يثير فيك أسئلة لا تريد أن تسألها ويوحي إليك بأجوبة ملغزة لا تريح، فلا تجد مناصًا من العودة إليه والغرق، طواعيةً، في أمواج لغته الصافية، المتلاطمة، المخدّرة.

إنها رواية نادرة المثال، هذه " شمس القراميد" لمحمد علي اليوسفي، تكاد تميل بك الأفكار إلى اعتبارها ملحمة شعرية متأسسة على منوال الملاحم الإغريقية، إلا أن أنفاسها ذات العطر المعاصر، وما يتراءى لبصيرتك من صور الواقع المألوف الذي تعرفه، تزيح هذه

الظنون سريعًا وتنهض " شمس القراميد" أمامك بعد ذلك رواية راسخة متحدّية حديثة، ذات تعبير ونبرة متميزين ومختلفين تمامًا.

تتألف الرواية من أقسام ثلاثة، قد لا تبدو مبررة للقارئ المتعجّل، لكنها، في خفاء، تؤشر لتغيير في المجال الروائي ولانتقال في الزمان :

مرايا مريم. امرأة المستنقعات. قمر البركة. كل قسم ينشطر إلى فقرات موسومة، تتشظى مثل نيازك ملونة ثم تلتئم بعدئذ، بعملية سحرية غير مشعور بها، وتلتحم فيقف القسم واضح الحدود مستقلاً بمعناه. هنالك، في القسم الاول، طفولة مترعة بالحكايات، في إحدى قرى الشمال التونسي الجميل؛ طفولة أسطورية بكل معنى الكلمة، لا تنقصها الأسرار ولا الحيوانات الخرافيّة ولا المآسي ولا القمر؛ يرتفع فيه اليوسفي إلى ذرى لا تنال بسهولة. وهذا القسم في اعتقادي، يؤشر بمفرده و بدون شك، الى بذرة روائي معلم.

وتنتهي الطفولة والحكايات، ويتوجب على الراوي/البطل أن يخوض متاهة المدينة وأن يتحمل السكنى في خان الدواب وبعض المشاق الأخرى مع النساء. و بعد حكاية لم تكتمل ورجم بالحجارة من قبل الشعب، وبسبب اختياره الطريق الخطأ، يُزجّ به السجن؛ وهو ما يختتم به القسم الثاني الذي لا ينتهي إلا ويكون الراوي/البطل قد عاد من حيث بدأ... "ينبغي أن أواصل بحثي عنه مهما كانت صعوبة الرحلة باتجاه أعالي النهر. لا بد من الغطس إذن. لماذا لم أفعل ذلك منذ البداية؟".

ولنا أن نفهم ما نفهم من معنى الغطس في النهر، فقد يكون هو سبيل البحث عن الأخ الفقيد وقد يكون الطريق الآخر ذا المزالق الذي لم يجرّبْه الراوي بعد؛ وفي كل الأحوال، فإن الرواية هنا تنفتح علينا بقسمها الثالث العجيب... قمر البِركة.

إنها الصفحات الأكثر إغراقا بالرموز والموحيات والغرائب والإناث والعواطف المبهمة والتصرفات اللامنطقية؛ تقطعها رحلة البحث عن " العندالة " برفقة العينوس، ذلك الذئب الذي استبدل الهمزة بالعين؛ ولأن القارئ يأخذه عالم العجائب هذا فينشغل بتفاصيله، لا ينتبه إلى عناصر الرحلة تتجمع وتتوحد وتؤشر للقيام بها. كانت الرحلة عملا ضروريا؛ مكتوبا على الجبين؛ وهي بشكل لا مفهوم، رحلة الحياة الشاقة المعقدة، المليئة بالآلام وبالأحلام المجهضة؛ ولعلها ذروة ما يريد أن يقوله اليوسفي. ففي ظني، أنه لا يرى إلى الحياة الانسانية رؤيا تقليدية ... بداية واضحة ومسلك و نهاية؛ بل هي عنده كتلة من رموز وألغاز ومتاهات، لا سبيل لحلّها إلا في الانغمار بها... في الغطس... بحثا عن الأجوبة في الأعماق. وبسبب هذه الرؤيا الخاصة المسيطرة، التجأ مظطرا، إلى شكله الروائي الفذّ هذا. إنه يبدأ بالإمساك بحدث أو لنقل بواقع معين، فيدخله في بوتقة لغته السحرية ويصهره فيها، ثم يلويه و يلويها، فيخرج منها بعد حين خطابٌ روائي أو نصّ أو تعبير لغوي فريد ذو رائحة ونغمة خاصتين جدا؛ فلا هو الحدث

نفسه ولا هو غيره، تختلط فيه ذاته مع القناع الذي قنعه به اليوسفي. ومن تحرك هذا "التعبير" اللغوي عبر الزمان، تقدّماً و تراجعًا و تكرارًا، يتكون الهيكل الروائي لـــ "شمس القراميد".

إنها بناءٌ تغلب عليه نكهة لغوية هي من صميم أسسه؛ فلا يبقى له ومنه شيء إذا ما سُلخت عنه لغة اليوسفي واستعمالاته الطريفة. هناك تداخل و تعاكس أحيانًا، بين دلالات اللغة التقليدية وطريقة اليوسفي في استعمالها؛ الأمر الذي يخلق في نفس القارئ صدمة ممتعة أو متعة صادمة؛ قد تتولد عنها فكرة مبهمة في ذهن القارئ عن الحياة و الإنسان لا تزول بسهولة.

"شمس القراميد" رواية مغامرات حُلمية، يصعب معها تبيّن ما حدث فعلاً وما مدى اقترابه من الواقع المعيش أو ابتعاده عنه؛ ولكنها، في كل الأحوال، مغامرات لها صلة خفيّة وغير قابلة للفهم دائما، بما عانيناه في الحياة وما ساورنا من أحلام اغتيلت بقسوة وكيف انقلب كل شيء، آخر الأمر، الى أوهام حزينة، لا ندري أمِن الصواب أن نعاود اجترارها، أم نتعقل و نرجع القهقرى؟

إنها رواية متوحّشة بلا معنى، تحتوي على كلّ المعاني؛ وهي، ربّما، مثل الحياة، مثل الكون، مثلنا نحن.

فؤاد التكرلي
تونس ١٩٩٧

في البدء

في البدء لم تكن توجد كلمة واحدة، ولا من يروي للناس حكايات؛ ولكي يكونَ راوٍ، ويتكلم، كان لابدّ أن يناديه أحد.

بالتماع الماء فيها، نادتْه عين شاردة.

أجاب: " ها أنذا... "

فكان صوت.

انتشرت عين الإنسان على الكون دهِشَةً، حذرةً، قبل أن تمتد يده مستكشفة، مدمّرة، أو بانية.

ثم هجست العين :" لأكوننَّ كمثل الروح، قبل الخلق، عندما كانت ترفّ فوق المياه " فصار لها ذاكرة: جزائر أحاسيس بكر، يدمدم فيها الجميع بما قبل الكلام، ولا يتكلم أحد.

ثم كانت لها الكلمة.

وكما الماء اخترق الجسمَ والتربة، بدأت الكلمة تخترق الصمت والفراغ.

وظلت العين

بيضويّة،

مشقوقة،
مستلقية في رطوبتها،
تتوسط شَعْرها مثل امرأة؛
نفّاذة،
معرّية،
مستكشفة فضاءَها،
تخترق دريئتها كرجل.

تحط العين في مكان ناءٍ فتشفّ حولها الأحداث؛
وتتوغل في ماضٍ سحيق فتتقافز الأشباح؛
تطرق المستقبل فيربكها الخيال؛
ثم تجرب الصمت، العمى، نبش الجذور في باطن التربة.

رغبة تحرك اليدين هي العين.
كتابة تسوق الأصابع.
للأعمى ظلال العين، له كثافة التلقّي وبُركانُ الإرسال.
وللقاتل صورة القتيل منطبعة في شبكية العين.

العين موجة كلام، شاطئ صُوَر؛
صور يمتهنها راوٍ ويؤطرها مؤلف كسول.
العين أمكنة في زمن، أزمنة...
بصر وبصيرة، ينبوع نور ونار، حركة حلزونية في الظلام؛
حركة متلّونة،
حرباء...
طفل يلعب.

إذاً من أين أبدأ؟

هل الذي كان، هو ما سوف يكون؟

إلى متى نظل نردد ما قاله الأقدمون، والحال أنّنا وُهبْنَا حياةً كي نعيشها حتى يأتي اللاحقون ويتمكنوا من تصنيفنا في سلّم الأسلاف؟

أخْرُجُ من زمن الأسلاف أوّلا، لأخرج من تربتهم لاحقا.

وأروي على لساني كلّ ما جرى بشأني.

فإليكم الحكاية، من البداية... إلى النهاية.

حكاية جابر الطرودي، وما جرى له من عجائب الإقامة وغرائب الترحال، مع شمس القراميد ابنة الملك الأبيض.

وكان بينه وبينها سبع صبايا كالأقمار، وشيخُ يسترجع الكينونة من بداياتها، دافعاً بظلمة العين وراء عرين أيّامه.

كان شيخَ طريقة معروفة، ثم مقطّر عنب، قبل أن يتحول إلى تقطير بريق الصبايا، في مكان؛ هو دائماً مكانان: تذهب إلى أحدهما فتتساءل عمّا كان سيحدث في المكان الثاني.

ويحدث أن تنضمّ إلى السَّبْع الصّبايا، ثامنةٌ هاربة؛ قَدَرُها الوقوعُ في فخاخ دائمة، ودورها الإفلات من تلك الفخاخ، سالمة.

ويخترق رصانة الحكاية قزمٌ، سمَّمَ حياة جابر الطرودي، منذ أن تَمَرْأى له ملاحقاً، بمقصه، عريَ العشّاق وأذناب الطيور.

وثمة ما لا تصدّقون من وجود أصوات مخنوقة تحشرج في ثنايا جهاتنا، وتذكّرنا بأن أسلافنا لا يزالون يشاهدوننا بعيون الموتى، ويدفعون بنا إلى تذكّرهم بعيون الأحياء، كي يتمّ التبادل كأفضل ما يكون.

يا سادة...

لقد بدأ العالم بحركة حنون...

فمن أين أبدأ؟

القسم الأول

مرايا مريم

امرأة من تدرّجات الضوء وخِضاب القرنفل

كل ما نفتقده يتألّق نوره في ماضينا. هذا ما أعتقده شخصياً. ولست أفهم كيف يتحول ماضينا إلى مستقبل للأيام الآتية، يقصده الغائبون سواء أكانوا قطارات أم بشراً.

وفي كلتا الحالتين أدركتُ أن الضجيج هو الذي تركنا، من دون التوصّل إلى الجزم بأن ما تبقى لنا هو الصمت. يقودنا الصمت غالباً إلى الماضي، وهو حاضرنا أيضاً، إذْ يستطيع أن يكون كذلك إذا كنّا نحن نحن، ولكنْ كما قد ترانا عيون الموتى.

فهل ماتت شمس القراميد حتى ينتابني شعور بأنني ماضيها، والحال أنني لا أستطيع ذكرها إلا بصيغة الماضي؟

ليس أوحش من قرية هجرها القطار. ولست أبكي السيد بوسكو: سكة صدئة أتينا، مع كائناتنا الأرضية، على ما تبقى من عوارضها الخشبيّة، صمت معدني عقيم، تتخلّله نباتات شوكيّة ذات أكواز متهيئّة للريح، وتسلكه أرتال من نمال مثابر وعظايات تخطف ما تبقّى من بقع الضوء ورنين الأصداء.

في زمن آخر، سمّيْتُه الصمت، كانت السكة تلمع متقطعة البريق، تحت ظلال شمس أخرى، سمّيناها "شمس القراميد" أو سموها لنا كذلك، لا فرق. امرأة من تدرجات الضوء

وخضاب القرنفل، تكشط سطح السكة الأملس، فيجيبك أيّ واحد منا: لم يمر القطار، بل هي شمس القراميد تهيّئ سكة أقدارنا.

فهل كان قدرنا الأحمق يهيّئ لتوقف القطار، لأن سكّة أخرى، في اتجاه آخر، أفضل من هذه العقدة الريفية الصغيرة، متّكئة على زمن أقل تعقيداً وعلى خطين متوازيين بين عاصمة ومدن ثلاث منغرسة في ما اصطلحتم عليه اليوم، باسم الشمال؟

مهلا! الشمال الغربي، أرجوك!

شمال الماء والبوم والصوّان.

الأرض التي يسميها لك آخرون أرضَ "إفريقيّة".

لم أكن بطلاً، ويبدو أنني لن أصير كذلك. غير أنني وُلِدت خلف صخرة، في الأراضي الممتدة تحت مجرى الوادي. وكانت تلك أراضي بوسكو.

عندي نهر، وسبع قناطر، تبدأ بجرف، أخشاه كثيراً خاصة عندما يمتلئ بأمطار الشتاء أو بفيضان النهر .

وعندي ممرّ صخري يخترق القرية من شرقها، متعرّجاً نحو جنوبها الغربي، حتى يبلغ مزرعة بوسكو. وهناك أملك دبّابة ومدفعا. وعندي أيضاً مصطبة تنفتح بها أوسع حُجرات المزرعة على منحدر الوادي. عندي صليب سرّي لم يكتشفه أحد إلا أنا ومريم.

من هناك أطلّ على جبالي الوردّية، ورائي، وأضواء المدينة البعيدة، أمامي. وتكون القرية على مرمى مدافعي. وكثيراً ما أفاجئ القطار بعطب مدوّ يجعله يفرّ صائحاً نحو أقواس القناطر، أو ناهبا الأرض باتجاه العاصمة. آنذاك ينتصب كلّ ما فيّ، ويتوفز مع المدفع. وإلى اليوم ما زال يحدث لي ذلك مع صفير قاطرة، أو ارتجاج عربات، أو حتّى التماع بريق على السكة. يكفي أن تكون سكّة ملساء، ناعمة، ذات لمعان خاطف، حتّى يقشعرّ كلّ ما هو نائم في جذعي اليابس.

عندي العين الباردة في غرب القرية، وبئر الضوء في شرقها، وسط غابة السنديان بالضبط.

بعد آخر طلقة، أصبْتُ بها رأس القطار، قرّرت الحكومة تغيير اتّجاهه، لكنه ظلّ محور تواريخنا وأمثالنا.

وهكذا صارت عندي مزرعة غادرها بوسكو، ومحطّة غادرها القطار.

كان ذلك قبل أن أقرّر، بدوري، مغادرة كاف الحجر.

لكل بطل علامات تسبق مولده

في البدء كنتُ فقيراً مثل دجاجة. أسكن مع أمّي وأبي في كوخ منعزل عن القرية، فوق الممرّ الصخري الذي يقضمه القطار. وكنت أرى كلّ شيء فوقي: مزرعتكم القديمة قبل أن يشتري والدك مزرعة بوسكو، وكذلك القرية والجامع والغابة. ولم يكن تحتي سوى السكّة والجرف والنهر. ولِدْتُ مهتزّاً مثل قطار. لكنني أنقل اهتزازاتي إلى طريق بريّة توصلني إليك في مزرعة بوسكو.

بقيت وحيدا بلا أخ ولا أخت، لأنّ بومةً شاهدتْ أمّي وهي تفرج ما بين ساقيها في الحقل كي تضعني. كانت البومة متضايقة في مخبئها الحجري النهاري، من أمي، ولا تستطيع حراكاً. وكانت أمي متضايقة من عيني البومة، من دون أن تستطيع التحكّم في أمرها.

تقول أمّي دائما، إذا عصيتُ لها أمراً: "اِذهبْ يا كلب، ولِدْتَ كالفأر، أمام عينيْ بومة" فأفهم أنّ البومة طبعتني، مع أمّي، بشيء مَّا. غير أنني أحتار كيف أكون كلباً، وأولد فأراً، في وقت واحد. وعلى لسان أمي: "اذهبْ يا كلب، ولِدتَ كالفأر... فانقطع نسلي."

عندنا تيس، أكرهه، لأنّ أمي تناديني باسمه، أو تعتبر رأسي كرأسه "يا رأس العتروس!" تقول لي" خرجتَ من كرشي، نطحتَ الصخرة، ها هي الأمارة على جبينك !"

والدي لا يتحدث إلا عن الأبطال. فتَرَبَّيتُ بينهم على الرغم من التحولات التي تحاول أمّي إقناعي بها.

ولِدْتُ فأراً. وصرت كلباً. ونطحت صخرة.

ولم تنته سلسلة الحيوانات التي ربطتني بها أمي، مع أنّه لا يوجد ما يثبت، في شجرة العائلة، أننا نتحدر من جدّ أقرب إلى جمل، أو جدة تشبه إوزّة.

أعتقد أن جدّتي لم تمت مثل إوزّة.

استيقظتْ ذات ليلة وغادرت الكوخ. "من دون أن تستيقظ" قالت أميّ. نزلت الممرّ الصخري، وسارت محاذية سكّة القرية باتجاه القناطر، لأنّ جدّي ناداها من قاع الجرف، فنزلت إليه مستيقظة. كان النهر آنذاك في بداية فيضانه الربيعي. لكنه استطاع أن يغمر الجرف قرب القنطرة الأولى. وفي الصباح وجدوا جثة جدتي عالقة بين شجيرات الدفلى التي تنمو في مساحة صغيرة، تفصل بين الجرف وضفة النهر. ظلّ اندفاع الماء يجرهّا وأغصان الدفلى تمسك بها، في حركة مستمرّة تتخلّلها بقبقة الماء من نداء جدّي، وتقصّف أصابع الدفلى الملتفّة على جسد جدّتي.

بكيتُ جدّتي مع أنني لم أعرفها. لكنني لم أقتنع بأنها غرقت مثل إوزّة ركضت وراء فأر. لو أنها انحرفت قليلا فوق السكة لبلغت العين الباردة التي تعيد الشباب لمن يشرب منها وهو يحلم. هكذا قال لي العينوس "جدّتك أخطأت الاتجاه".

علاقتي بالعين الباردة بدأت قبل ولادتي. قالت لي أمّي: "ما إن أملأ منها كفي وأشرب حتى ترفس بقدميك في بطني كأنك تعترض على برودة الماء. كنتَ طفلاً لا يهدأ إلا عندما تتعب أمّه ويشتدّ خفقان قلبها. تسكت قرب القطار وعقارب الساعة، وتحرّك رأسك متفاديا بؤرة الضوء".

كيف أدركتْ ذلك ؟

لقد جعلتني أعيش ما قبل ولادتي، كما فعل العينوس بعدها تماما، عندما أمسك بي من أذني وقال لي: " اسمع بعينك." كان ذلك أثناء حضوري حلقة المستمعين إلى حكاية والدي عن سيف بن ذي يزن وأخته عاقصة. "يا ابن الفداوي لم يعد السماع يكفي." قال لي، ثم رافقني إلى الكُتَّاب .

أول مرة دخلت الكُتَّاب اصطدت سمكتين كبيرتين من النهر. كان لونهما رماديّاً. أخذتهما إلى أمي فلم أجدها في البيت. وعندما عادت من الحقل فرحت بالسمكتين. ولم تسألني عن الكُتَّاب والمؤدّب. قلت لها ضربني بسبب " الكوميدينكم والكوميديني" أجابتْني "لكي تصير رجلاً" ثم تناولت السمكتين. نظفت الأولى وقطعتها غير مصدّقة. وعندما أمسكت بالثانية قفزت هاربة من بين يديها. فظّنت أنّها انزلقت من بين أصابعها. تناولتها من قصعة الماء ثانية فتلوّت وأفلتت منها الى الماء. سألتني :" متى اصطدت السمكتين؟" قلت :" قبل مرور القطار" قالت: "لم يخلق ربّي سمكة تعيش، خارج الماء، كل هذا الوقت !" ثم التقطت السمكة وحزّتها بالسكين في منتصفها، فوثب النصف العلوي حيًّا، خارج القصعة، وسقط النصف السفلي داخل القصعة. قالت:" هذا سمَك باسم الله الرحمن الرحيم !" وقذفت به للكلب. قلت لها: "الكلب أكل جدّي وجدّتي." قالت: " إن شاء الله يأكل رأسك". قلت: "الكلب لا يأكل رأس أخيه!" قالت: "الكلب يأكل رأسك ورأسه".

جاء والدي ليكرر مرّة أخرى أن شغله لم يعد ينفع. حكت له أمّي عن السمكتين. فهزّ برأسه غير مصدّق. وأضاف:

–أيام بوسكو كانت جنّة. كان يناديني لأسلّي العمال وهم يشتغلون."هكذا أفضل" يقول لي "يا مسيو الكونتير."

وأوضح لي والدي أن "الكونتير" هو اسمه. وله أسماء أخرى مثل المدّاح والفداوي والقوّال والحكواتي، ثم سألني عن الكُتَّاب. أخبرته بأنني حفظت الكثير. فقال لي: "هكذا

تستطيع أن تصير فداويا على الأقلّ. " أجبته بأنني أعرف كل الحكايات التي يرويها من دون أن أذهب إلى الكُتَّاب. قال لي: "ما زلت تكسر اللغّة وتجهل الأمثال."

عرفت من الحكايات أن لكلّ بطلٍ علاماتٍ تسبق مولده. فسهرت أجمع علاماتي وأحصيها. بدأت بالبومة التي راقبتني، ثم عدت القهقرى إلى بطن أمّي لأكتشف علامة أخرى: علاقتي بعين الماء.

قال لي العينوس: "البطل هو الذي يبني عالماً على صورة خالقه. وأنت جئت تحت علامة العين فاصطدمت بصخرة. لن يُجْديك تكرار الحكايات." ثم أخذني من يدي حتى مصطبة المزرعة وقال لي: "انظر! ماذا ترى؟" قلت: "أرى كلّ شيء؛ السماء والشمس والحدأة والنهر..." أمرني أن "أصرخْ يا بابا !" فصرخت حتّى تلاشى الصدى. سألني: "أين أبوك الآن؟" قلت: "في الدكان يلعب الورق" قال: "سوف يقول قتلتني أذناي، أما أنت فلا تكنْ سامعاً كبيراً بأذنين هائلتين وإلا قَتَلَتْكَ عيناك." قلت له: " لم أفهم." قال: "عدْ إلى الكُتَّاب".

حفظت سوراً وآيات صعبة. وفي كل مرة يقول لي المؤدّب: "أخبرْ أمك أنّك ختمتَ وهات العصيدة" فأجلب له العصيدة حتى لا يضربني بالفلقة، من دون أن أعرف ماذا ختمت. لكنني أدركت أنّ لكلّ ختمٍ ختماً، ولكلّ عصيدة أخرى. وحده يأكل عصائده كل صباح ويتركنا في هرج بين حِبْر السمّاق ولطم الألواح. وما لم أدركه، إلاّ فيما بعد، هو أن طريق الكُتَّاب يؤدي إلى المدرسة النائية، وأن طريق المدرسة النائية معبّد بأشواك وذئاب وثلوج مفاجئة تجعل المدير يرفع العلم فوق المبنى ليقول لنا من بعيد: لا تتقدموا أكثر!

قطار حنون يهدهدك كي تنام

القطار مرة أخرى.

هذا القطار اللعين.

عندما أستمع إلى هديره من بعيد "يسير سيرًا حثيثًا" أو "ينهب الأرض نهبًا" كما تقول كتب المدرسة، لا أتمكن من تحديد اتجاه الصوت، وبالتالي وجهة القطار: أيَأْتي من أقصى الشمال الغربي نحو العاصمة، أم من الاتجاه المعاكس؟ كل ما أدركه هو اهتزاز النّمل واندفاع الزواحف ثم انبثاق أصوات المسافرين والباعة في دماغي. عندئذ يتركز الاهتزاز في عضو واحد من جسدي، فينتصب مثل عمود الراية في محطة شبحية.

فيما بعد سوف أجرب ركوب الدراجة والسيارة فلا تغادرني تلك الحالة.

أراه فلا أصدّق أنّه يسير في الحاضر وينهب أرضا واقعيّة باتجاه أرض أخرى توجد في الواقع.

تلمع السكّة. يُصفر صفرتين بريتيْن فتنزاح شبكة متصلة من الصمت، يمزّقها هذا السهم المداور، المخترق، والقابل للاستعباد مثل عيني.

يقف عند المحطّة فلا يجدها.

أدرك آنذاك أنني أستطيع الإدلاء بسؤالي:

"أنت لا تراني وتقف لي

وأنا أراك ولا أجدك

فمن منا الآخر؟"

وها هو ذا يصل أخيرا.

تركض مريم بشعرها المربوط إلى الوراء، وعينيها السوداوين الواسعتين، وأنفها الذي يسبقها دائما إلى صعود القطار لبيع البيض المسلوق وخبز الطابونة أو فطائر الملاوي.

تصيح بي:

- جابر، جابر، ساعدني!

أحمل معها السلّة حتى تصعد إلى القطار، وأقول لها:

- لو كنت جابر لما ساعدتك!

تتركني وتبدأ بالبيع.

ينزل المسافرون القادمون من العاصمة، ويصعد آخرون ينوون السفر إلى بوسالم وجندوبة وغار الدماء، وإلى المحطات الغامضة المتوزّعة بينها.

وحده القطار الصغير الرابط بين قريتنا، كاف الحجر، ومدينة باجة، يظل رابضاً في انتظار النازلين الذين سيلتحقون به من قطار العاصمة، لأنه يؤمّن الربط بين القرية والمدينة.

قطار خشبي صغير مثل مهر أشقر، يصيح في بطنه الدجاج وتلمع حوله عيون بنات آوى، حتى يقرّر التململ من مكانه، فتئزّ ألواحه وتنصفق نوافذه، ويبدأ إيقاعه المزدوج: تشيك تشاك، تشيك تشاك. وبذلك اخترنا جنسيته من صوته فسميناه قطار التشيك. يتحرّك فيطير اللقلق فوق المئذنة عندما تبلغه زوبعة الدخان والغبار.

فيه درجة جلد ودرجة خشب.

لكن الجميع يجلسون أينما شاؤوا.

حنون؛ يهدهدك كي تنام.

شقي؛ يعابث طمأنينتك بالكوابيس.

مُهْر كسول لا يهرول إلاّ في المنحدرات مُتَباهياً أمام القمم، فتكاد العربات تهوي. لكنه يلهث في المرتفعات فيظلّ الركاب في مكان ثابت لولا معجزة دوران الأرض.

ينزل الباعة من القطار الكبير لأنّه دائما في عجلة من أمره. ويتوجهون الى القطار الصغير؛ قطار سينتظر كثيراً قبل انطلاقه محملاً بالحبوب والبطيخ والدجاج.

تصعد مريم. يصعد العينوس. يصعد أخي. يصعد والدي. ويصعد آخرون.

أقول: أهو قطار حقاً؟ أصعدوا إليه؟ أم أنني عدتُ إلى الهذيان مرّة أخرى؟

ألوّح للمسافرين في بطنه. وأعيد صياغة سؤالي وفق حركته:

"أنت لا تراني وتغادرني
وأنا لا أراك وأمتطيك
من منا الآخر؟"

أخـــي

يختبئ أخي خلف الخزانة. يطلّ عليّ واضعاً عشَّ عصفور على رأسه. أرى العش فارغاً. أقترب منه وأسأله:

- هل العش فارغ؟

يزمّ شفتيه ويحرك سبَّابته في وجهي:

- عندما يكون العشّ فارغاً، ينبغي أن تراه عشاً فارغاً، وتقول هذا عش فارغ!
- لكنني لم أره جيداً، أنت تتحرّك والعش فوق رأسك.
- العش فوق رأسي، هل طار منه طائر؟
- لعلّه طار قبل أن أجيء.
- إذا طار قبل أن تجيء فمعنى ذلك أنّه عش فارغ.
- لماذا تضع عشاً فارغاً على رأسك؟
- أنا لم أضعه على رأسي.
- هل سقط من شجرة؟
- لم يسقط من شجرة.
- لماذا تحب الأعشاش الفارغة؟

- أنا لا أحبّ الأعشاش الفارغة.
- إذا مددت يدك، الآن، إلى هذا العش الذي على رأسك...
- لن أمدّ يدي...
- دعني أكمل، إذا مددتَ يدك إليه، ماذا تجد فيه؟
- أجد يديَّ!
- وهل يداك في العش الآن؟
- العش فارغ.

ثم يعود أخي إلى الاختباء خلف الخزانة.

لكنه يستطيع الظهور، أو الإكتفاء بالتلصّص عليّ، من إحدى الزوايا. لذلك لا أتركه. وأصيح به:

–يا غدار، لماذا تقرّر، وحدك دائما، وقت الجدّ ووقت اللعب؟

وعندما يطيل ولا يجيب أقول له:

–تغيب كما تريد، وتحضر متى تشاء، هل تخشى شاويش الجبس حقّا؟

يتناول شيئاً أبيض، مثل كرة صغيرة، ويقذفني به. فيصيب قمة رأسي وأنا منشغل بمراقبة جعلان الأرض. لا تؤلمني الضربة لكنها تفتح رأسي عند عين اليافوخ. فتعود إليَّ طراوتها كأنني ولدت من جديد. قبل ذلك حكت لي أمي ماذا كنتُ أفعل قبيل الولادة. حكى لي العينوس بدايتي التي لم أعشها.

في ليالي القرية ينهض أخي. يخرج سائراً في نومه، ولا يبحث عن العين الباردة، كما فعلت جدتي، فسقطت في الجرف، لأنّها أخطأت الاتجاه، بل يسير حتى يبلغ المقبرة، خلف مزرعة بوسكو. يحفر حفرة صغيرة. يخلع ثيابه، ثم يدفنها، ويعود.

وبذلك يتخلص من البراغيث.

وأراه أحيانا يركض عارياً في حزمة ضوء.

أركض وراءه كي أفتح يافوخه، بدوري. لكنه يتميّز بتلك القدرة الفائقة على الظهور كما يريد، والاختفاء متى يشاء.

يظهر. أضرب.

تلتوي يدي، أو ترتخي. فلا أصيب الهدف. أقول له:

- تعْبتُ كثيراً. أريد أن أضربك، لكنني تعبت.

يقترب منّي مبتسماً أو شامتا ولا يتكلم. فأقول له:

- لن أغيظك مرّة أخرى، ولن أحذّر أمي من الجلوس عليك!

يرفع أصابعه المضيئة في الهواء ويقول:

–اِنسَ يافوخك ويافوخي.

فأنساهما بسرعة وأسأله:

–لماذا؟

يجيبني بسبّابته اليمنى المتحركة في الهواء:

- لأنّ لك رأسين وأربع عيون؛ النصف لك والنصف لي.
- ولماذا تضربني؟
- أضرب النصف الذي لي.

لكنني أعود إلى نفسي فأقول في سري:"أخذني وصار يتكلّم بي" ثم أصارحه:

- ها أنتذا تعرف أنّ ما ليس لي، ليس لي.
- الآن فقط عرفت!
- لماذا تظنّ دائما فتصدّق ظنّك؟
- الله غالب، أنا هكذا... لا تترك أمي تجلس عليّ عندما تغسل...

ثمّ ينصرف إلى سطح الماء يحركّه بكفّ يده.

بوسطل، شاويش الجبس

لست أدري لماذا وُلِدَ بوسطل قصيراً، سميناً، ضيّق الكتفين، عريض الخصر، يمشي فتلوح ساقاه القصيرتان متقوّستين نحو الداخل. وهكذا يتفرّغ إلى حك رأسه، وهرْش بطنه، مفكّرا في حلٍّ آخر، لمشكلة جديدة. لكن كلّ مشكلة يصنعها، أو يجدها، تبقى صغيرة دائماً، لأنه يستطيع حلها، أو تأجيل حلّها، واستبدالها بمشكلة أخرى: "لا بد من مشكلة أصعب حتى يتقدّم المخّ !"

رأيته يحمل علبتْين؛ إحداهما مملوءة جبساً والثانية مملوءة ماءا، وهو يستطيع، إذا لم يسرق الجبس، أن يملأ علبته بالطين. يسدّ بيوت النمل، ويقول إنّ المغناطيس يجعل النمل بغيّر أبوابه. كما يصطاد الجعلان ويرصع بها الجدران، فيدفن أجسامها تحت الجبس ويترك رؤوسها خارجَهُ.

لكن المشكلة الصّغيرة التي ظلّ يؤجلها دائماً، هي محاولته حبس شقيقي في حفرة كبيرة.

لقد اضطر إلى تجهيز سطل كامل من الجبس ليصطاد أخي، مرّة في حفرة، ومرّة في تجويف شجرة. لكنّ بوسطل الذي سمّاه أخي "شاويش الجبس" يخرج ملّطخا دائماً، وينسحب مبلولاً، لاعناً... ثم يعيد الكرَّة بعد تأجيلها.

أسأله وهو يتعثر ورائي:

- لماذا تصر على اصطياد أخي؟
- لأّنه لا يطرق الأبواب ويثرثر من ثقوبها.
- كيف عرفت ذلك وأنت لم تره؟
- وكيف أراه وهو لا يطل إلا من الثقوب؟

عندئذ أخرج له لساني:

- دَعْنِي، يا بوسطل، دعني أثرثر مع أخي حتى ينتهي الجبس من العالم.

حكاية والدي وحكاية اليهودي يعقوب

لم يعد والدي قادراً على فرض السكوت في مقهى القرية. ولم يعد الحاضرون يكترثون كثيراً لصوته الجهوري مطالبا بالانتباه إلى بدء سيرة الزير سالم، أو قصة الأمير حمزة البهلوان، أو قصة فتوح اليمن الكبرى الشهيرة برأس الغول. وصاروا يفضّلون الخوض في أخبار البلاد والعباد، وأصداء ما يجري في العالم كما تصلهم محرَّفةً أو مهوَّلة، بهذا القدر أو ذاك.

أما تعليقاتهم الساخرة فكانت تحوم حول أبطال الماضي واستحالة عودة الفارس الكبير والبطل النّحرير، أو الجنيّة الخيّرة ذات الحضورات النيّرة.

ولم يعد والدي يتردد على المدن القريبة في أيّام أسواقها الأسبوعيّة، بل يمكث في القرية مكتفياً بكتابة الحروز، وجلب المحبوب، وحلّ المعقود، متوغلاً في كتبه الصفراء من أجل تسهيل الولادة، وفك السحر، وتسكين وجع الضرس، أو لإحضار الغائب، وقضاء الحوائج، وكشف ما أشكل في المنام.

وعندما أسأله لماذا لا يمارس عملاً آخر، يجيبني:

- اسمعْ يا جابر، أنا أتكلم على لسان أجدادي؛ لساني يحكّني إذا لم أرْوِ ما نقلتُ عنهم.

أردّ معترضاً:

- لكن الدنيا تغيرتْ...

فيعود إلى أمثاله وحكاياته يدعم بها رأيه:

- ألم أحكِ لك حكاية اليهودي يعقوب؟
- كلا!
- اسمعْ إذاً: كان يعقوب يهودياً فقيراً. لكنه كان متفائلاً دائماً. ومثلك أنت اليوم، أحسَّ بأن الناس عابسون. فتساءل كيف أجعل الناس يفرحون؟

ويلتفت إليَّ والدي محدقاً:

- هل تدري ماذا خطر بباله؟

وعندما أكتفي بهزّ رأسي متسائلا، يقول:

- خطرتْ بباله فكرة. قال: "عندي فكرة. سأروي للناس حكايات حتى يفرحوا مثلي." فوقف على كرسي وبدأ يحكي حكاياته. في البداية تحلق حوله الكبار والصغار. لكنهم سرعان ما انفضّوا من حوله وتركوه. قال: "من الصعب تغيير العالم في يوم واحد." وتابع سرد حكاياته، فقال الناس عنه إنه مجنون.

أقاطعه ساخراً:

- لأنه صار كالمنادي في قعر الوادي!

يبدو على والدي بعض الانفعال. لكنه يواصل:

- ومع ذلك لم يتمكن منه الفشل وظلّ يروي حكاياته المتفائلة فلا يسمعها غيره.
- وماذا حدث له بعد ذلك؟
- مرت أعوام كثيرة... وذات يوم أمسك به طفل – أصغر منك – من كمه، وسأله: "ألم تلاحظ بأن أحداً لا يسمعك؟" أجاب يعقوب: " لقد أحبَبْتُ الناس، فأردتُ، قبل ولادتك، أن أغيرهم" سأله الطفل: "فهل تغيروا؟" قال:" لا " فسأله الطفل مرة أخرى: " فلماذا تواصل حكاياتك إذاً؟" أجابه: " لكي لا يغيرني العالم!"

ويضحك والدي ضحكة مدوية يستعيد بها قوته ويعدّل بها مزاجه. وإذ تعجبني الحكاية لكنها لا تقنعني، أقول له:

- لكنّك لستَ مثل يعقوب!
- كيف؟
- لقد تغيّرتَ!

تفاجئه ملاحظتي فتبرق عيناه ويسألني:

- كيف؟

- لم تعد تحكي فقط، صرتَ تحاكي قوى الجان وتستدعي ريحان خادم الملك الأخيضر، وتستنطق الكمون والفلفل الأكحل والسّينوج، وحَبَّ الرّشاد والتابل والكروية، كما تضع أم البويا حيّة في الكانون وتذبح الفكرون.

فيقاطعني حتى لا أتابع تذكيره بالسردوك الأسود وإحراق الليمون والتوصية على فضَلات الحمام من مكّة...

- كلّها من علوم الأولين، وعلومهم قد لا تنفع أحياناً، لكنّها لا تضرّ.

أما سُلْطته فقد ظلت متأتية من قدرته على التدخل في حياة الآخرين. فهو يعرف أسرارهم وأمراضهم. ويدرك كرمهم وبخلهم. ويستطيع شدهم، في مناسبات نادرة، باستطرادات ووقائع من الحياة اليومية. فينهر هذا، ويستخدم ذاك، ويهجو غيرهما، فتردّد القرية هجاءه.

قبل ذلك كان قادراً، بين طعنة لعنترة وهجمة لعدوّه أن يسأل أحدهم: "هل وَجَدْتَ بقرتك الضائعة يا حسونة؟"

ظلف الماعز

أعتقد أنّ من يستيقظ ليلا ويسير في نومه لن يبلغ الخلود، حتى ولو شرب من مياه العين الباردة. ليس لأنه مهدّد بفقدان الاتجاه، كما حصل لجدتي، بل لأن "ظلف الماعز"، ذلك الثعلب اللعين، اعتاد التبوّل في العين.

يتسلل من الجبال إلى الغابة، ومنها إلى المزرعة. يلتهم دجاجة، ويترك أخرى ميتة كي يحملها بين أنيابه إلى حفرة المؤونة، لدى عودته إلى الغابة. وهناك يتحلّى بأكل التوت البريّ.

أخفقتْ كلّ الفخاخ والكلاب في القبض عليه ميتا أو مكسور الساق. فقلت لأخي:

- هل تستطيع صيده؟

أجاب متفحصاً صدره:

- أحتاج إلى عدد كبير من البراغيث.

قلت:

- سأصطاد معك.

وصرنا نجمع البراغيث ونضعها في كيس. يفلت برغوث فيسير أخي بجانبي ويحكّ. وبعد وقت، صار يحك ويقفز أيضا. فصرت أصطاد البراغيث منه.

قلت له :

- اِخلع ثيابك لأنقّيك.

اعترض وهو يضع أصابعه على بطنه:

- لا ألبس ثيابا!

أوضحت له بإصرار:

- ربّما كانت البراغيث تحت جلدك، لذلك تقفز كثيراً ولا تخرج من جلدك.

قال:

- لم أخرج لأن البومة تكشَّفتْ على أمي.

سألته:

- ماذا سنفعل الآن بكلّ هذه البراغيث؟

أجاب وهو يحكّ جلده:

- نذهب إلى الدجاجة!

- أيّة دجاجة؟

- الدّجاجة الثانية التي يتركها الثعلب مخنوقة.

غادرنا البئر باتجاه المزرعة. وفي الطريق سألني:

- لماذا لم تفتح أمّك بطن السمكة في ذلك اليوم؟

استغربتُ سؤاله لكنني أوضحت له السبب:

- خافت منها، كانت سمكة حيّة... ولماذا تفتح بطنها؟

قال:

- يشكّ المرء أنّ في بطنها شيئاً!

لم نجد ريش الدجاجة الأولى التي يسلخها الثعلب بضربات من فكه ثم يلتهم لحمها. وعلى بعد مسافة صغيرة، بحثنا عن الدّجاجة الثانية؛ دجاجة المؤونة.

قلت لأخي:

- لعله خبّأها؟

قال مشيراً إلى عين الماء:

- ذهب ليبول في العين، ويعود إلى الدجاجة.

- لكنّنا لم نجده.

- لم نجده لأنّه وجدنا، وهو مختبئ، يراقبنا الآن.

- ماذا نفعل؟

- نبحث عن الدجاجة الميتة.

- وإذا لم نجدها؟

أجاب بإشارة من يده:

- نقتل واحدة.

أردت أن أثنيه عن هذه الفكرة:

- لقد خيم الليل، وينبغي أن نتوغل في المزرعة...

أصر قائلا:

- لن يراني أحد.

بعد قليل عاد وفي يده دجاجة ليس لها ريش في عنقها:

- لويت عنقها حتى لا تصيح!

سألته وأنا أتفحص الأمكنة حولنا:

- هل رآك أحد؟

أجاب مستنكراً:

- ومن عساه يراني؟

فتحنا بطن الدجاجة ثم فتحنا كيس البراغيث بحذر. ملأنا الدجاجة بالبراغيث ورتقنا الفتحة بالقشّ.

سألني أخي:

- لذيذة، أليس كذلك؟

قلت:

- تغلي البراغيث تحت جلدها، مثلك!

فابتسم قائلا:

- لكنها لا تستطيع الحكّ!

عدنا إلى العين الباردة ووضعنا الدجاجة على صخرة. وهناك انتظرنا طويلا إلى أن غفوت. ولم أكد أستيقظ حتى رأيت "ظلف الماعز" كما سميناه، يركض بين الأشواك.عدت إلى الوراء حتى بلغت جدار الكُتّاب فاختبأت وراءه.

رأيت الثعلب يقفز بين الأشواك ويقضمها.

فيما بعد أدركت أنّه لم يكن يقضم الأشواك، بل كان يجمع صوف خرفاننا العالق بتلك الأشواك. وكلما التقط نتفة صوف علكها في فمه حتى تحولت نتف الصوف إلى كرة واحدة.

بعد ذلك توجه "ظلف الماعز" إلى العين. وبدأ يغطس في مائها البارد قليلا قليلا. وكلما غطس أكثر تسللت البراغيث قافزة إلى الجزء الذي لا يزال ناشفاً من جسمه: تقافزت البراغيث من قوائمه إلى بطنه، ومنه إلى ظهره، فعنقه.

لكنه تابع الغطس حتى لم يبق غير خَطْمِه خارج الماء. فاضطرّت البراغيث إلى مغادرة عنقه، لتتجمع فوق خطمه الذي مازال خارج الماء، وكأنها خليّة زنابير لا تفارقه.

عندئذ أخرج "ظلف الماعز" كرة الصوف من فمه وغطس بكامله. فانتقلت البراغيث من خطمه إلى كرة الصوف. وتجمّعت حولها في زوبعة باهتة.

تخلص الثعلب من الكرة. وترك البراغيث جانحة على كرة الصوف المهتزة فوق سطح الماء. ثم خرج من العين هارباً.

ولم ينقطع "ظلف الماعز" عن التبول في العين الباردة.

بعد ذلك جاء جيل جديد من الثعالب القادرة على جمع الصوف من بين الأشواك.

أما بوسطل، شاويش الجبس، فقد أعيته الحيلة. وأجَّل مشكلة الإمساك بالثعلب، بعد أن أجل مشكلة الإمساك بأخي.

عين البومة

هل عين البومة هي التي تجعلني أعثر في الأرض ؟

هل هي التي تحبس أخي في المرآة، فلا يهرب منها إلا عاريًا؟

رأيته يركض تحت الشمس، بين فرجات الغابة، على سطح ماء النّهر. فيخرج مبتلاّ، لامعًا بقطرات ماء ونتوءات زغب.

- ليست البومة هي التي حبست أخاك، قالت أمي، بل العين التي تشتعل بما فيها وتطلب ما ليس فيها.
- وأية عين هذه؟
- العين الضيقة التي تطلب من الآخرين وسعهم واتّساعهم.
- وأين عساها تكون ؟
- عند المرأة الشَّعراء والرجل الأمرد، عند صاحب العينين الزرقاوين وعاقد الحاجبين، عند العجوز والعاقر، عند الأحدب والقزم والأعور...

- رأيتهم جميعاً.
- لذلك فقدت أخاك.
- رأيته يركض ...
- رأيت ظلك !
- وماذا تفعل العين يا أمي ؟
- تقطع عودك إن كنت عنقود عنب، وتسقطك من طيرانك إن كنت محلّقاً.
- وهل ترى في الظلام مثل عين البومة ؟
- ترى في النور كما ترى في الظلام، لذلك تشبه البومة كما تشبه عين سالمة، أمّ مريم!
- أمّ مريم؟
- عينها بومة بشريّة، فلا تلعب مع ابنتها!

ذات مساء صيفي بدأت تصرّ فيه جداجد الليل، رأيت بومة ثابتة على غصن رمّانة، كانت تترصد رغباتها وتبحث عن فأر تخلّصه من ذاته ثم تخلّصه من الصمت الذي لا ينمو فيه سوى صرير الجداجد. كانت بومة ترى، ولا ترى أنها ترى مثلنا، في فضاء الكون الذي هو ماء عينيه. وحتى هجومها كان صمتاً، له صوت واحد، هو ما يتركه الحفيف.

أفلتت اللحظة من مرآتها الليلية، وصارت لذة طاغية وصوتاً صغيراً مستغيثا.

كان نداء.

وكانت العين ترصد الأنحاء والومض الذي فيها. فأشعلتْ في داخلي ناراً. ثَّبَتتْني في لحظةٍ نَقَلَتْني إلى الاستجابة للحفيف الممزَّق.

دوّى الحفيف في طبلة أذني صوتا لصمتٍ يتأمل ذاته في مرآة ليليّة.

في الغد، كلّفتُ شاويش الجبس بمهمة جديدة: أن يرصد أعشاش البوم ويسدّها بالجبس على طريقته. وهكذا يترك أخي وشأنه ويتفرغ إلى قابلة أمي.

النّهـــر

قالت أمي إن العينوس "يتحرك من تحت أيديهم" وكلّ ما يحكيه ليس له علاقة بما نراه.

لكن والدي أيضا يستدعي الأخيضر وخادمه. ولم أره مرة واحدة يحضر. قلت:

" أذهب إليه إذاً! "

تسلّلت من الكوخ ونزلت المنحدر الصخري الذي تشقه سكة القطار عبر القناطر. توغلت في الحقول المحروثة حتى بلغت النهر. وهناك رأيتني مقلوباً في الماء. ناديت الملك الأخيضر سبع مرات قالباً حروف اسمه. جاءني خادمه ريحان في زوبعة من رذاذ وطين.

قال لي وهو مستلقٍ على ظهره فوق الماء:

- لماذا ناديتني ؟

ارتبكت في البداية ثم قاومت ارتباكي :

- أريد أن أرى الملك الأخيضر.
- لا أستطيع مساعدتك.
- لماذا ؟
- لأنني أشتغل الآن !
- وماذا تفعل ؟
- أمارس مهنة نهر.
- وهل يصير خادم الملك نهراً ؟
- قلت لك أمارس مهنة نهر، ولست نهراً.
- ومن كلفك بهذه المهمة ؟
- أنت !
- أنا ؟
- نعم !
- أنا لم أكلفك بذلك!
- ألم تأتِ لترى رأسك تحتك؟
- جئت لأرى الأخيضر.
- الأخيضر لم يعد يجيء.
- لماذا؟
- لأنه عطشان... قلْ لوالدك أن يكفَّ عن استدعائه أيضا.

انتبهتُ إلى أنه لا يزال مستلقيا على ظهره فسألته:

- ولماذا تظل مستلقيا، ولا تقف؟

أجاب وهو يحدق، مرة في وجهي، ومرّة في السماء:

- لكي تراني تحتك، وأراك مقلوباً.
- أنت أيضا مقلوب، وها أنذا أراك.
- أنا الذي أراك تراني.
- وأنا أراك تراني.
- أنت تراني، ولكنّني أراك ترى أنّك تراني...
- وما الفرق؟
- الفرق أنك لا تستطيع أن تراك أراك تراني ...

ثم غطس غطسة ليظهر فجأة:

- تراك! تراك! اتركني... بعد قليل ستمطر فوقي... إلى اللّقاء.

وظلّت فقاعة تتراقص فوق سطح الماء. قالت:

- كنت قطرةَ ماء وجاء مللك الهواء فسكن بيتي.
- كيف فعل ذلك ؟
- للهواء أسرار في الماء.
- ألا تستطيعين طرده من بطنك، أقصد: من بيتك؟
- إنه لا يطيل البقاء حتى لا يتعود عادة.
- متى يملّ ويخرج ؟
- في بطني حكاية يكفي أن تتركني أحكيها لك حتى يخرج، فهلاّ أذِنْتَ لي بذلك؟
- نعم، كيف كان ذلك ؟

تراقصت الفقاعة وقالت:

- هنا كانت تسكن رفيف الماء، عشقها أمير الهواء. وأراد أن يفصلها عن النهر لكنه خاف من أهلها...

ولم تكد الفقاعة تكمل حكايتها حتى انفجرت ضاحكة وصارت قطرة ماء.

العينوس

أردتُ الصعود مع النهر باتجاه الجرف كما يفعل العينوس الذي يستطيع الخوض في الطين عائدا إلى المنبع، ليغيب أياما ثم يعود. قال لي: "هناك الصمت المطلق، حتى أن الحياة لا تبقى كما تعرفها. وإذا سمعت صوتاً فهو نداء استغاثة لشيء يريد أن يكون".

وتذكرتُ ما قاله لي والدي: "ذلك الأسود له موقف من الدنيا. جرّب أشياء خطرة وفشل. كان يريد سلطة ما. بحث عن كنوز كثيرة، لكنه تسبّب في موت الكثيرين ممّن لاحقوا أحلامهم. هو وحده الذي توصّل إلى حكمة الصمت. ألا ترى كيف أنه لا يخاطبك إلا محدقاً في عينيك؟"

أما أنا فأجده بسيطاً، وبعيداً، بسبب كلامه الذي لا أفهم منه الكثير. وخاصّة عندما يتحدث عن العين فتصير عيوناً أرضية تحدها الجبال والكهوف، وعيونا سماوية لا يحدها إلا ما لا يحدّ. وكلها تسبح في الماء والهواء "مثل عينك تماماً" يقول لي، ويضيف:" عينك التي بجمجمتك تحتمي وبدموعك تتطهّر."

ظلت مياه النهر تتقدم وأنا أمشي فيها مقلوباً. جمعتُ عشرين جُعَلاً، ووضعتها تغلي في جيبي. وما إن بلغتُ أول الجرف حتى رأيته. نعم! رأيت العينوس يمشي كما تمشي بطة متأخرة في أرض محروثة. وكان منقاره مفلطحا، مثلها، تحت عين ساهمة وأخرى نفّاذة.

اقتربتُ منه فأشاح عنّي بوجهه. لم أبدأ بالكلام. انتظرته حتى يخرج فعلاً، ويراني. انتظرته حتى يسألني مجاملاً: "ماذا تفعل؟" لأنه يعرف كلّ شيء ورجاله أخبروه. لكن أين رجاله؟ لا أحد.

وضع يده على خدّي.

مدَدْتُ يدي لألمس بها يده وأتمتع بضغط اليد الطينيّة الجافة، فَنَتَرها متفاجئا ثم تمالك نفسه، وأعاد يده. قلت في نفسه ــ وهو يراني ــ أهكذا يقترب منا الكبار؟ ألم يفكّر مثلا أن السكين في جيبي ولا أحد يراقبني؟ فرأى أنني لا أحمل سكينا. كان أخي يركض وفي يده سكين. لكنه لم يصل. بدأ الضجيج فقلت إن المفاجأة في زيارته تكمن في كثرة حراسه. قلت في نفسه مرّة أخرى هل أقول له: "أحتاج إليك"؟

وصل أخي عارياً. رأيته يفتح باباً في الحقل. قلت له:

- لا !

قال:

- بلى !

قلت :

- العينوس !

قال :

- سأدخل !

وبدأ يغضب مثل مريم. قلت:

- انتظرْ، سوف أتركك تتسلق القناطر معي ونتفرج على جدّتنا. فتراجع وخرج من الباب الذي دخل منه مصطدما بشاويش الجبس الذي لم يره.

عدت إلى العينوس أقول لنفسه: "هل أحكي له قصتي؟" لكنني أدركت أنه يعرف عني كلّ شيء. وإذا كان يعرف، لماذا يأتي برجاله الذين أخبروه؟ أحسست بعينه الأخرى تراقبني. سمعت صوته الذي يأتي بلا كلمات.

قال لي الصوت الذي بلا كلمات، ولا يقول أنا، بل يقول أنتَ دائما، لأنه صوت الصمت:

- سقطتْ عيناك في القصعة وغسلَتها تلك المرأة!

ارتبكتُ وقلت:

- سامحني!

قال:

- كأنك خُلقت لتسمع فقط... وها أنتذا تبدأ بالقصعة. لا تخفْ! في القصاع تصير مدعوًّا لأن ترى. تصير منقسما إلى راءٍ ليس أنت، ومرئي ليس أنت. إذْ لاعلاقة لك بما ترى وأنت منقسم مرتيّن من دون أن تكون أنتَ.

سكتَ قليلا ثم أضاف:

- حتى في الرؤية عُدْتَ إلى الصدى. حولْتَ صورتك إلى انعكاس فلم تعد أنتَ أنتَ.

همستُ في نفسه:

- نعم. أَطَلْتُ مع الدجاجة والبطة. واقتربتُ من الأرض كما يفعل الحمار.
- كل شيء يفعل فعله لاحقاً. حتى المكان لا يفعل فعله مباشرة. الرائحة مثلا: تمتزج الحواس فتشمّ ما رأيت أو سمعتَ أو خشيتَ. وإذا عدت إلى المكان يبدأ بالاعتداء عليك. فتكاد تشيح بوجهك. وعندما لا تستطيع، يقشعّر بدنك وتبكي صامتاً.

وظلّ يتكلم وأنا صامت:

- تفاصيلُ رأيتَ وسمعتَ، تفعل فعلها لاحقاً. فينفجر المكان فيك ويمضي إلى ماضٍ يشدّ خطاك. لعْنَتُكَ أنك رأيتَ قصعةً، وفروجةً نائمة في ثقب جدار.

تركته يهذي في الظلام كما يهذي ذكر الإوز تحت الشمس. وقلت في نفسه "تعبتُ" قال:

- إلى أين أنت ذاهب؟

أجبته متردداً:

- وعدتُ أخي بتسلق القناطر.

قال مبتسماً:

- تأكل برتقالة فتقول إنك صرت برتقالة، مع أنك امتصصتَ رطوبتها. أنت كالماء، وسوف تقتنع بكل ما يسكنك كي تسكن الجاذبية. سوف تقتنع حتى بلذة الموت، بانعكاسك في شعاع فالت، وعيشك في قطرة مالحة، لأنك سوف تغادر الحياة بملوحة دمعة عاشقة.

وقبل أن يتركني ناداني للمرة الأخيرة، من دون صوت، وسألني:

- أتعرف خصائص الماء؟

أجبت مرّة أخرى في نفسه:

- لا شكل له ...

قال :

- أينما حلّ يُطيل، حتى وإن تبخر!

وأعاد طرح السؤال:

- أتعرف خصائص الماء؟

أجبت:

- لا طعم له...

- قال:

- مُدَاور، مخترق، وقابل للاستعباد، هياماً بالجاذبية.

وعندما عاد إلى السؤال عن خصائص الماء، مرة أخرى، أجبته بسرعة:

- الماء سائل شفاف، لا شكل له، ولاطعم، ولا لون، ولا رائحة...

قال :

- قاتل وقتيل، مطهّر وآسن، نافع وشرير.

قلت:

- لذلك يرفض الشكل.

قال :

- لأنه مطاوع وعنيد في آن. أتعرف لماذا يتناقض؟

أجبت بالنفي، فقال:

- من أجل التسلل، وبلوغ الباطن!

قـــنـــطـــرة الـــنّـــسور

غاب العينوس أياماً. قلت لأمّي: "كنت أظنّ المعلّم أهمّ، وليس من السهل أن يقترب الإنسان من العينوس".

ركضتُ أبحث عن أخي كي نتسلّق القناطر. قلت له وأنا أبحث عنه: "هذا شيء مدهش، أليس كذلك ؟"

أخرج أخي، بواسطة خنصره الأيسر، قطعة كبيرة من أنفه وأخفاها في يده اليمنى. عرقتْ يده فصارت القطعة لزجة.

بحثنا عن الزّعرور والقرّاص وقرون الجدْي. وأجرينا سباقاً بين عشرة جعْلان منّي، وعشرة جعْلان مني، أعطيته إيّاها لأنه لم يجد جُعَلا واحداً قرب الجرف.

سمّينا القناطر السّبع: قنطرة النّسور، قنطرة الغربان، قنطرة الميمون، قنطرة ريحان، قنطرة الجعلان، قنطرة البول، قنطرة جدّتي.

ترجّاني أخي وذكّرني بالوعد :

ـــــ دائما أنتظر مساعدتك كي أتسلّق القناطر !

سألته مستجيباً :

ـــــ أيّة قنطرة تريد اليوم ؟

أجاب قافزاً :

ـــــ قنطرة النّسور ! قنطرة النّسور !

قلت :

ـــــ أوّلاً، انظرْ إلى النسور كيف تحلّق وتهجم على القنطرة !

سألني :

ـــــ متى تنزل لترشّ علينا رذاذ الماء ؟

أجبت :

ـــــ عندما نشرع في التسلّق.

صعدنا فسبقني. وبلغ حافة القنطرة، في موضع القوس العلوي تماماً، وصاح من هناك :

ـــــ أنا الذي سألبس التاج!

عندما بلغتُ حافة القوس، وراء أخي، تزحلقت متقهقراً قليلاً، و... متُّ. لكنّ يديَّ تشبَّثَتا بالحافة. ووجدتُ حفرة فأدخلت فيها يديَّ. قلت إن شاء الله لا تتكسر قطعة الحجر أو تتجرّ مع التراب. فلم تفعل.

صار بعيداً الآن. تمكنتُ من الصعود وحدي. قلتُ صار في إمكاني ألاّ أعوّل عليه. قلت أنا أستطيع كلّ شيء من دونه. كأنّه تركني ليعلّمني وإلاّ، من الذي علّمه الشماتة؟ لكنني أعرفه جيّداً. هو لا يتركني ليعلّمني؛ يتركني دائما لأن فكرته قالت له شيئاً فركض وراءه.

رأيته يركض عبر القناطر حتّى بلغ العين الباردة ثم صعد باتجاه المزرعة. وهناك صعد إلى الجرَّار الصدئ. وما لبث أن تركه ليجتاز المقبرة، متوجّها نحو الغابة. لمحتُه عبر فرجات الأغصان عندما لاح في بئر الضوء. تعرّى من كلّ ثيابه التي يقول إنّه لا يرتديها. صارت عيناي تابعتيْن له ثم بَكَتَا سابحتيْن في الفضاء.

امتدّت يداي تحسبان أنهما في الظلام، بعد أن نسيتْ عيناي أنهما في الضوء، وفي الهواء.

عندئذ رأيت عينيَّ وكرهتُ العينوس.

سوف يخبره رجاله بذلك. قرّرت ألاّ أكلّمه مرّة أخرى. سوف أنظر إليه فقط. فلا أتكلّم ولا أسمع حتى لا أكفّ عن الرؤية وتصير عيناي من طين. بتّ أخشى الأمكنة التي تسبقني إليها عيناي. وأخشى أصابعي عندما تبدأ بالتلمّس في الظلام، وأنا في بؤرة نور، بينما عينان أخريان تومضان في جمجمتي، تدفعان بي إلى

الخروج، والركض باتجاه علاماتها، حينما تدلّني الأشعة الأرجوانيّة على حضورها.

يا شــيخ جـــــياد، يـــا ريحان

انعكست الأضواء على السكّة. رأيتها تمرّ. العينوس على يمينها يقول: "أنا عينها" ووالدي على يسارها يقول: "أنا صوتها".
رأيتها تراني أراها.
خرجتُ منّي ولم أعدْ أنا.
ليس لي اسم وكلُّ اسمٍ ليس أنا.

يا شيخ جياد، يا ريحان، يا خادم سورة الفاتحة، تعال، بحق الملك الآخذ بناصيتك. ها هي ذي المرآة على كرسي وأنا أنظر فيها فلا أرى سوى الدّخان. احضرْ، أرجوك. ها أنذا أستسلم للطُّعم في برج الماء. فلا أرى أمام عيني، وأرى وراءها: يداي تمسكان بعينيّ وعيناي تسوقان يديّ فأخرج من زَمن الكهوف إلى زمن البشر.

أهبهم متعة مرور قطار على عوارضه الخشبيّة ومخازنه ومحطّاته ولقالقه وغباره ودخانه، إذْ ينزلق إلى وادٍ ضيّق، ويمرّ أمام كوخ مضاء، فيهبط منتشيًا ويصعد لاهثا، ثم يطل على الأطفال، على باعة البيض المسلوق وخبز الطابونة، معلناً عن حضوره بتصفيرتين حادتين...
أهبهم متعة المقلاع وأعشاش البوم والتراكتورات الطينية.
أهبهم سرقة البطيخ زحفاً بين السنابل.
أهبهم فتنة البول في الأماكن الأكثر سريّة.
أهبهم روعة الدّالية المتشابكة مع شجرة لوز.
أهبهم ما لم يعيشوه بعد: صبايا يغادرن القرية متزوّجات.
أهبهم جبالاً يأتي منها ثعلب أدمن البول في العين الباردة.
أهبهم سبع قناطر وجرفاً.
أهبهم "سيلوس" الحبوب وجرذانه.

أهبهم كلمات أخرى تركها عندنا مسيو بوسكو: شاف، كَبْران، كونتير، تراكتور، تران، لنقار.
عاد القطار محمّلاً بكم. لكن كيف صرتم أشباحاً ؟
نزلتْ مريم من القطار فسألتها :
ـــــ أتبيعين للأشباح ؟
بادرتْني بلعبتها :
ـــــ أنت مثل الكتّابْ، مبيَّض بالجير، وما عندك بابْ ؟
أجبتها على الفور :
ـــــ أنا لست بيضة !
تحدّتْني أن أتابع معها لعبة الألغاز. فسألتها :
ـــــ وإذا كنتِ أنتِ أيضا، كالكتّاب، مليانة بالطلاّب، وما عندك باب؟
ـــــ أنا لست رمانة !
ـــــ تتْولدْ بلا فوطة، وتبقى سرّتك مربوطة ؟
ـــــ لست بطيّخة !
ـــــ مرآة الخلاء تتمشط فيها السماء ؟
ـــــ عين الماء !
مللتُ متابعة اللّعبة لكنها أصرّت :
ـــــ إذا شربت، شرابك موت، وإذا عطشت، عطشك قوت ؟
ـــــ مريم!
ـــــ لست ناراً. ها ! ها ! غلبتك، لأنّك لم تجبْ !
ـــــ بل أردت إنهاء اللعبة.
ـــــ طيب: بلا رجلين ولا رأس، تمشي وتحفر بلا فاس، وإذا قتلت تقتل بلا رصاص ؟
أجبتُ قاصداً إحراجها :
ـــــ لست نهراً لأطفئ نارك.
فأسرعتْ بالردّ :
ـــــ من يثق بالماء ؟
ـــــ ومن يثق بالنّار ؟
ـــــ يكون المولود بخاراً.

تلاشت المسافة بين المحطّة والبيوت الأولى، فسكَتْنَا. هي، ذهبت بنارها تتّقد. وأنا انتصبتُ أتأمَّل رعشاتي المائية الأولى إذْ تنعكس فيها مترجرجة، مقلوبة، عارية، صورة مريم، مهتزة على السطح، تؤطّرها سحب السماء، وأسماك الماء، حتى تبلغ مياها مالحة، وتنتهي في ما لا ينتهي...

شعاع كاشف

تراقصت الزهور الورديّة الفاتحة على فستانها الأصفر عندما رفعته من جهة واحدة، غارزة حاشيته اليسرى عند الخاصرة.

جلستْ على مقعد خشبيّ خفيض، أعلى من قصعة الملابس قليلاً. فتحت ساقيها حول القصعة.

فخذها اليسرى، بعُرْيِهَا المنسحب نحو مواضع نديّة، تسكن عينيَّ. ("أخت، بيتها جنب بيت أختها، لا تشوفها في فرحها ولا في موتها ؟"، "العينان !" قلت.)

مدّت يديها وانحنت على القصعة.

بدأت تغسل.

يتمكّن منها التعب في هذا الوضع، وعيناي تخترقان زنديْها.

تقدِّمُ ساقها اليمنى وتؤخر اليسرى.

تظلّ عيناي تطرفان مع كلّ حركة إبدالٍ لساقيها. ويُبرق بينهما جنون ظليل يمتصّ أشعة عينيّ تحت شمس النهار.

وقفتْ ثم انحنت.

أدْنَتْ يديْها من ساقيها.

صارت قدماها وراء القصعة ويداها داخلها.

ترفع جذعها ثم تحنيه في حركات متتالية تجعلني أرسل شعاعاً كاشفاً حتى أرى. قد تغني الآن بصوتها الجميل الذي يميّزها في الأفراح. تنفرج ركبتاها إلى اليمين والى اليسار. تتقدم فخذاها محتضنتيْن معصميها فتبدو متجمّعة من أجل إنقضاض ما، يفركني.

تقف.

تنشر.

تتشّف المكان من الماء بحركات لولبيّة سريعة من المكنسة.

يظلّ فستانها منسحباً فوق الركبة من جهة اليمين.

ويظلّ أكثر انسحاباً على فخذها اليسرى بسبب ثَنْيَة المطاط الخفيّ. الفستان الأصفر يهتزّ بزهوره الورديّة الفاتحة، مع وقع المكنسة. أطلقت الفستان المشدود عند الخاصرة.

كنستْ آخر ما تبقّى؛ عينيَّ.

لكنّ الصورة تظلّ تسكن رأسي ولا تغيب إلاّ عندما تأتي مريم وتهمس في أذني: "خيط في السوادْ يربط بلادْ ؟"

فأجيب: "الرّقاد ...".

مكـــسِّـــــرة المـــرايا

أهذي وأحبّ خوفي.
أكون في أقل الأماكن توقّعا.
الماء ساكن. تلمع فيه عيون كائنات ليليّة. تسرق ما انعكس عليه من وميض الليل.
تمعن في أعمال الصّيد.
لم يأت أخي.
لم يأت العينوس.
العينوس لا يُرى لأنه ليلي.
وأخي لا يَرى لأنّه نهاري.

صوت العين الباردة يحلم والسماء تتمشط.
أكل الثعلب مائة وستّ وأربعين دودةٍ في ليلة واحدة. وغداً سوف يأكل أرانبَ وحلازينَ ويعاسيب وجنادب وجرذاناً. يأتي ليبول في العين ثمّ يذهب ليتحلّى بالتوت الأرضي وفطر الغابة. يتناولها بأطراف شفتيه واقفا على قائمتيه الخلفيّتين، ثمّ يعود إلى جحره الذي طرد منه جرذ الغابة، ووسّعه، واستفاد من أنفاقه الكثيرة، ومنافذه المتعدّدة، كي يُفشل الخطط.

حشرات ضوئيّة على سطح الماء.
النهار لا يرى لأنّه ليل، لأنه بومة تحرس الصمت من النداء.
البومة ليل الصقر.
اجتازت النّهر. حطّت على الدّفلى مكسورة الجناح.
اقتربتُ منها. قفزتْ إلى عود آخر. سقطتْ أرضاً.
أخذتُها إلى البيت. ضمّدتُ جناحها. وضعتها في قنّ الدجاج. أطعمتُها لحماً فتبرّزت رائحة نتنة.
فتحتُ لها القنّ فطارت من شجرة إلى شجرة.
من الأفضل للإنسان ألاّ يكون فأراً ؛ لا قبل موته، ولا بعده.

رأيت مريم قرب سور المقبرة ومعها كلباها.
هجم عليّ الكلبان الأسودان مزمجريْن، فتشجّعتُ خائفاً. ازداد نباحهما.

هجمتُ عليهما وانحنيت أجمع أحجاراً. ابتسمتْ مريم. وبإشارة خفيفة من يدها هدأ الكلبان.

ـــــ خفت ؟

ـــــ سوف أطعمهما لحماً مسموماً.

ـــــ معنى ذلك أنّك خفت ... لماذا جئت ؟

ـــــ اشتريت لك مرآة.

ـــــ عندي واحدة.

ـــــ ضعي واحدة على اليمين وواحدة على اليسار.

ـــــ أخشى مكسّرة المرايا !

ـــــ أمك ؟

ـــــ البومة !

الـــحـــكـــايـــة

تهيَّأْتُ للسفر، بعد إصرار أبي على ذهابي إلى المدينة لإكمال دراستي. طلب مني في البداية أن أروي حكاية أو سيرة، أمام حلقة الرجال، في مقهى القرية. ولمّا رفضت قال لي :

ـــــ احكِ لهم حكاية العينوس وشمس القراميد !

رفضتُ ذَلك أيضاً.

والحقيقة أنّني لم أكن أعرف حتّى من أين أبدأ. رأيت الحاضرين يهلّلون ويضحكون :

ـــــ ولد الفار حفّار !

ـــــ شمس القراميد جنيّة خرجت من كتب والده !

ـــــ والعينوس؟ ذلك المعتوه! هل يكون بطلاً لحكاية ؟

لذلك رفضت.

ورفضت أيضاً لسبب آخر: فعندما أتكلّم لا أرى. وعندما أروي حكاية، لا ترتبط أطرافها، ولا يبقى منها سوى ذكرى أطفال كبروا، وبنات تزوّجن، وجدّات متن.

وثمة سبب آخر:

قال لي العينوس: سوف تكبر وتلازمك الحكاية. لن تكبر معك، لكنها سوف تتّضح أكثر. وعندما تجد أنك أكبر منها، تمسك بها من يدها، فتدلّك على طريق لا تدلّك عليها عيناك. وتكتشف أنّ في عينيك قوّة كاذبة، تفرّق ولا تجمع، ترى ولا تدوم. عندئذ يسكنك التساؤل: أيّ أثر أترك على الأرض؟ أأُنجِبُ طفلاً أم أبتكر حكاية؟

إذاً... لن أرث أبي وأروي حكايات لم تعدٍ قادرة على إيوائنا أيّام القيظ والصّقيع.
ينبغي أن أسوق خطاي إلى سيرتي، بعيداً عن حضن أمّي وحلقات أبي.

لم أجد خيطاً أربط به الكلام

كأنّما صُمّمت الأشياء لتصدم العين، أو تقودها إلى وجهة تريدها، فتنفتح ثغرات جديدة في الجسم: واحدة توسّعها النساء، وأخرى يسكنها الضجيج، وثالثة تعمل على إعادة تشكيلك من جديد.

"لا تستطيع النجاح" قال لي صوتٌ خارجٌ من ثغرة في داخلي، بينما ثغرة في سقف الغرفة ترشح ماءاً، ورأسي يرشح بما ألقّن من دروس.

في الشتاء امتلأت غرفتي ماءاً، وابتلّت كتبي.

وفي الرّبيع غادرت روحي المدينة، وبقي جسدي متهيّجا.

ينظرون ولا يتكلّمون. يتفرجون. يراقبون الأضواء والطّرقات والسّاعات والأوراق والشاشات. وأنا يراقبني شخص في داخلي؛ يقول لي: "سوف تبقى في خدمتي" فأردّ: "أريد أن أكون في خدمة امرأة".

أرتبك. أريد التحدّث إليها فتضحك ساخرة أو تشتم غاضبة. أتحرك وأمامي واجهة تفصلني عن الآخرين. "ادخل!" قالت لي. لم أخترها. اختارتني. أخذتني ضاحكة، مستعجلة "أول مرّة ؟"

توقفتُ في الشارع. دخّنت سيجارة خانقة تحت الجدار. جاء آخرون فكدت أبكي. الناس أشباح وراء واجهتي. يراقبونني. أبْعِدْ قدميك عن قدميَّ. أبعدْ يديْكَ عن صدري، استقم بعيداً عن سرّتي وأنفاسي.

لكنني أدخل في الزّحام قادراً على الاحتفاظ بأسراري.

أدمى قدميَّ الحذاء.

ما الحاجة إلى أحذية في طرقات معبّدة وأرصفة مبلّطة؟

أصابعي في الحذاء أطفال ريفيون في مدينة مغلقة.

أجرّ أصابعي. أفتح حذائي لتستريح أصابعي.

يعرفك أهل المدينة من حذائك وقميصك، من عينيك ومشيتك.
أطفالهم يجدون فرصة للضحك على ما يشبه تيساً فالتاً من حقل أو حظيرة. سألت أحدهم عن عنوان رابح الفداوي، فدلّني على دار تنهب الحواس. جرّتني عيناي إلى الممرّ حيث نساء متبرِّجات. "مهمتك هي الدراسة" قال لي والدي "لا تنسَ أن عمرك أكبر بكثير ممّنْ يدخلون المدارس الثانوية في المدينة" وما ذنبي إذا كان أطفال المدينة لا يكبرون بسرعة؟ لكن ليس إلى درجة أن تدق باباً فتسقط في أروقة معتمة تسكنها النساء.
وأخيراً وجدت الفداوي رابح "تجده في مقهى بُوقُفَّة صباحاً، وفي زاوية سيدي بوحربة المقابلة للكنيسة القديمة مساء، يوم الجمعة يذهب إلى حـــمَّام بوصندل ثم إلى الجامع... سوف يساعدك على إيجاد حجرة في أحد فنادق الذّاوب."
"لمصلحتنا جميعاً" اتّصلتُ بوالدك، المالك الجديد لمزرعة بوسكو، لأقدّم له الأخبار التالية "المزرعة تشكو من الإهمال في غيابك، الآلات القديمة ازدادت تفكّكا وصدأً، حتّى إن مياه الشتاء صارت تزيد في تسميم المزرعة، وجدتُ لك خمّاساً ثقة، وأستطيع، أنا أيضاً، إذا رغبتَ، أن أشرف على المزرعة مع زوجتي..." وتنفيذاً لتوصية مريم، اتصلتُ بأختها زينة الساكنة في أعلى القصبة مع زوجها وأطفالها "تُسلّم عليهم، تتعرف عليهم، وتُخبرهم أنّ مريم ستزوركم قريباً".
اكتشفت أشياء مذهلة، بحركات ليست حركاتي بل تستدعيها الأشياء من خارجي، وبنظرات تسبقني فتجعلني كما لست أنا، وتتركني وراءها حائراً.
أرتعش، أفرح، أخاف، ولا أحبّ خوفي.
السماء فوق المباني. واللغة الفرنسية تتجاوز المدرسة إلى الحياة اليومية.
الساكن القديم، في جسدي، يتخبّط في حقول غامضة.
رياضيات وعلوم، وكتب مجانية في المكتبة العموميّة.
السينما!
عندما دخلت إلى قاعة السينما وجلست على المقعد وجدت نفسي أعلى من الجالسين كلّهم. الأضواء مطفأة، وجميعهم يصيحون من حولي: "اقعدْ ! اقعدْ ! "

قعدت والله ! لكن رأسي ظلّ نائتاً وبقيت أطول من الجميع، بل زائداً على اللزوم، برقبة نائتة فوق الكتفين وعليها رأس، حتى أسعفني الجالس بقربي: "لا تقعد هكذا، الكرسي مطويّ، اِفتحْه إلى تحت، هكذا، ثم اقعدْ!" وبذلك تخلّصتُ من نتوء رأسي.
غير أنني بقيت فترة أحاول الإختفاء عن العيون مع أن القاعة شبه مظلمة.
ورأيت الصور ! وسمعت أصواتها !
سافر بي مقعدي وأنا أحلم مستيقظا. كان نومي غير عميق، كان نعاساً تتزاحم فيه صور مدهشة ويتداخل فيه الظلّ والضوء: مدافع ومغامرات وحرب عالمية. أشياء تكبر وتتمدّد. أخاف أحيانا وأفرح. أحبّ خوفي.
خرجت من القاعة فلم أكد أميّز أين أنا، وأين كنت، وماذا سأفعل. ظلّ فيلم المدافع يلاحقني.
وظلت تلك العجوز تفتح الباب الأزرق وتقول لي: "اُدخلْ !".
أذكر الآن عندما وجدت العم رابح كيف استقبلني بحفاوة داخل الزاوية. قال للحضور إنني فداوي صغير يرفض الخدمة ويتطلّع إلى المستقبل. وهذا أفضل!
حدّثهم عن سفرته عبر الحدود الجنوبيّة بحذاء يمشي إلى الوراء كما يفعل الهاربون والمهرّبون. شربنا الشاي وتوجهنا إلى الفندق.
كان خاناً قديماً. حصلت فيه على غرفة عالية تتنفس تحتها البغال والحمير، بسعر زهيد. أوصاني العمّ رابح: "أيّ شيء تحتاج إليه اُطلبْه منّي ولا تخجل" سألته عن عنوانكم. ولم أزركم إلا بعد أيّام فوجدت العائلة تبكي موت ابنتها البكر. أمّا أنت فقد طلبت مني أن آخذك إلى المزرعة. هل تتذكّر؟ فوعدك أبوك بزيارتها في فصل الصّيف.
بعد ذلك وجدت بيت زينة، شقيقة مريم ؛ كانت تسكن في أعلى القصبة مع أبنائها ودجاجاتها . سألتني عن أمّها وأختها وعن أخبار القرية كلّها. وأخبرتني أن زوجها غير موجود لأنّه يعمل أسبوعاً في الصباح، وأسبوعاً في المساء، وأسبوعاً في الليل، كما هو نظام العمل في معمل السكر. وطلبتْ منّي أن آتي أحيانا لتناول الغداء معهم.

هل أحضر حلقات العمّ رابح الصغيرة، في زاوية سيدي بوحربة، أو بوهربة، كما يقول البعض، متسائلين عن تاريخه الصَّحَابي ؟

كلّهم رجال يعرفون كيف يُربكون يديَّ.

عدت إلى باب السبعة.

درت وناورت وجبت شوارع إضافية لا حاجة إليها. طرقتُ قلبي الأزرق فازداد نبضه. "أُدخل!" قالت لي. أما التي اختارت ارتباكي فقد جعلتني أنبح في صدري وأخلع ثيابي. أعطتني أمراً آخر، وآخر، أربكتني كأنها هاتف. وأرْكَبَتْنِي مائلا على بغلة. انعقد لساني ولم أجد خيطاً أربط به الكلام. لم أجد كلاماً. وقفت في مركز الدائرة وتلقيت كلامها وكلامي المخنوق، مختلطا، متشابكا، متضاربا. لكنها تقوله، وأنا أخفيه حتى اختفى ما جئت من أجله.

قالت لي غاضبة :

ـــــ أين هو يا ...

هي على حقّ. حتى أنا لم أجده. لا يستطيع بصوت طاغ يقطع الصمت ويمزّق الصورة. دخلتُ باباً وغبتُ. رأيت ذلك الرجل في أرْوقة باب العين، تحت سور عين الشمس، يمشي وحيداً، يتقدّم أمامي تراه الفتيات فيضحكن ويتشتّتن واضعات أيديهنّ على أفواههنّ وكأنّهن يُغْلِقْنَها دون خروج الدهشة والضحك، فيخرجان.

جفّ حلقي وارتخت مفاصلي.

خرجتُ منّي أخيراً.

دفعتني مثل فأر، ببراثنها. مثل قطّة كانت، وظهري إلى الحائط. ظهرها إلى الحائط. أخرجتْ شتائم كانت مخبّأة. طلع شرر من عينيها ومن طلاء أظافرها. وفي لحظة اشتعالها بتلك النّيران قالت لي: "ألا تعرف مكانه؟ ألا تعرف وقته ؟" قلت في نفسي: "ليتني لم أفعل ذلك". رفضت العراك معها، أو ربّما خفت من خوفي.

لذلك بكى طفل في داخلي.

وقلت ما أصعب أن يكون المرء رجلاً، يحنّ إلى امرأة، ويندفع نحوها مشتعلا، متأجّجاً، صارخاً، وربّما ضارباً، لا لشيء، لا لشيء، لالشيء، إلا لأنّ الطفل الذي

في داخلك محتاج إلى المرأة، وأنت تدافع عنه. فتهجم، وهو يبكي. وتهجم هي، فيزداد بكاؤه. وتتقدّم أنت ؛ والشرر، الشرر، كأنما معركتك ليست مع امرأة يريدها طفل يبكي.

فيما بعد سوف يقول لي والدي: "لم تفلح في الفلاحة، ولا في الدراسة. ماذا تنوي أن تعمل؟ حتّى الحكايات رفضتها. خذ كتبي وافتحها كي تجلب الغائب وتحلّ المعقود."

أيّ قدر كانت تستقبلني به المدينة؟ لقد بَحَثَتْ عن كلّ صفة من صفاتي وأدرجَتْها في موضعها المهيَّأ سلفاً: كريفيّ فقير، أسكنتْني المدينة، أو جعلتني أسكن، في فندق للدواب. ولأنّني أكبر من أقراني سنّاً فقد حوّلتني لأدرس الصناعة، أنا المزارع العاثر ابن الحكواتي! أما أقراني فقد سوّروني بما يعتقدون أنه من صفاتي "الهائم البردان!" وعندما قصدت الحبّ حتّى أرى مريم من مرتبة ترفعني إليها النساء، أحبّتني التي أحبّها صديقي.

كنّا نهيّئ الاسمنت والآجرّ لنشترك في إعلاء ربع جدار أمام عيني أستاذنا الصناعي ـــــ والبناء صناعة أيضا ـــــ عندما همس لي صديقي: "أرجوك، أريد منك أن تكتب لي رسالة إلى فاطمة، بأسلوبك الساحر!" وبعد أيام جاء الردّ. سألَتْه فاطمة عن كاتب الرسالة. وبعد تهرّب وإلحاح أخبرها بأنني أنا الذي كتبت الرسالة، عندئذ أجابته " أخبر جابر الطرودي إذاً، بأنني أشاطره المشاعر نفسها!" "اللّعينة!" قال لي "صارت تحبّك أنت!" لكنني لم أجرؤ على التمادي في لعبتها، لأنني كنت مدركاً أنّها لعبة فخاخ مازحة.

كانت دراستي تسير في اتجاه (رفْع عيّنات من الجدران، بَرْد قِطَعٍ من الحديد، نَجْر قطع من الخشب، ومواكبة ذلك بدروس نظريّة عمّا فعلنا أو سنفعل لاحقاً)

وقراءاتي تنهب المكتبة العموميّة التي وفّرتها لي المدينة مجانا، بعيداً عن البناء والنجارة والحدادة، بعيداً عن شخير الدّواب وأصحابها في أيّامي ولياليّ، مع هجوم البرد، والجوع أيضا.

فشلتُ مع فتاة عرجاء. فشلت مع فتاة متمنعة. ثم فشلت مع وحيدة التي سألتني في أول مناسبة "لماذا تتصرّف هكذا؟ هل أنت عاشق لواحدة أخرى ؟" هل كنتُ عاشقا فعلاً ؟

فيما بعد لن يقول لي والدي " لم تفلح في الحكاية، ولا في الفلاحة، ولا في الصناعة" لأنّ الخبر الذي اقتلعني من المدينة، فاجأني من العمّ رابح الفداوي:

"أبوك... يرحمه الله، ويرحمنا معه... وأمّك تريدك بجانبها!"

وكان هناك نداء مريم أيضا.

أأستطيع القول، الآن، بأنني لم أنجح بسبب الفقر أم بسبب الصناعة، بسبب الحبّ أم بسبب الكتب التي هربتُ إليها، بسبب أمّي أم بسبب أبي، صندوق حكاياتي التي هربت منها؟

كيف يصنع المرء قدراً وهو يُصنع له؟

هل هو قدر آخر، ذاك الذي حدّثني عنه العينوس، قدر الرّكض وراء وَهْمٍ آخر، وسيرة أخرى، عنوانها "شمس القراميد"؟

بـــواطـــن الـــــحـــــيـــرة وإعـــــداد الشِّراك

مات أبي.

أعتقد أنّه مات كما كان يتمنّى: نَفَس أخير حشرج في صدره بألم خانق، لكن بهدوء. فلم يُطل الاحتضار.

في ظهيرة جمعة خريفيّة ممطرة، على هضبة الموتى، ودّعناه، وودّعه معنا مطر أخير، إلى حفرة أسلافٍ لنا، تكدّست عظامهم عند قدميه (مَنِ الذي سيروي للآخرين حكايات ؟)

لكن، كانت ثمّة دودة، نادراً ما ينتبه إليها الأحياء...
بعد أيّام، أمام قبره، لمحتُها، مكتنزة، شعراء، تغادر ثقبا صغيراً في حافة القبر...
ببطنها الأرجواني الثقيل...

توارى صندوق حكاياتي وتمسّكتْ بي أمّي.
أرعبتني عين مريم.
رأيت فيها هلاكي.

مات شيء في عيني مريم. صارت كائنا متعاليا على ما يوجد حوله. بدأ ذلك بعد فشلها في المدرسة. وتطور متحصّناً بصوتها الذي ينادي الكلاب فتستجيب، ويخاطب الطيور فتلين، ويفلت في ليالي أعراس القرية مداعباً أسماع شبابها، محرّكاً رغباتهم.
حدّقتُ في عينيها تحدّقان في عينيّ فأصابني الدّوار.
قالت :
ـــــ تغيّرتَ كثيراً...
قلت :
ـــــ أنتِ تغيّرتِ !
وأشرتُ بعينيّ إلى نتوء صدرها المفاخر.
ابتسمتْ. واكتمل الصمت حولنا. ظلّ ذلك الشيء يتكلّم فيها مثل انعكاس النّور على البلور. أدركتُ من عينيها أنّني تغيّرت فعلا. لم أعد ممتلئاً. انفتحتْ ثغرة في أعماقي.
في المقبرة دخلتُ مكاناً آخر، من باب موارب. لم يعد هناك اثنان؛ أنا والحكاية. دخلت الحكاية. صارت لزجة، حيّة، تجري أحداثها في كل مكان، وفي اللامكان. وأنا العين التي انتظرت حتى توحّدت بما ترى. أما الرواة فقد افترستهم العين. لن أصير راوية بعد أبي. عليّ أن أكتب حكايتي.

بحثت عنها فلم أجدها. ولم أجدني. تلاشينا في غبار الحقول وطيران البوم وطنين الزّنابير وقرع الطبول. استجبنا لنداء يأكل اللحم والعظم، ويسكن الصَّمْتَ مستكملاً حلقة مفقودة، في سلسلة السلالة اللاّمعة، في الوديان والحقول والتلال؛ الحلقة التي تحرّك الأبطال وتوجّه الأحداث. فلا يصرخ جَمَالُها بل يخبّئ جلال القوة السَّاكنة، وشِباكها المهيّأة لأيّام البطولة واحتراق القلوب. لقد هيّأها الانتظار، أمام المرايا، مستبقة ما هي منذورة إليه. تتسلح له ببواطن الحيرة وإعداد الشراك. ثم قالت لها المرايا: سيري الآن فالجسد تؤرّقه التعرية.

كيف أتذكر اسمها، طولها، حجمها، كي أرفعها من غلالة النعاس؟ هي ذي تنشر شِباكاً من أحلامها. فهل تتركني حلماً قديماً، وهماً زائلاً في زاوية من زوايا دماغها ؟

من تربة المقبرة إلى الغابة أخذتني. تسللتْ يدي إلى فخذيها. اختلجت ثم صاحت. دخلنا جحوراً ترابية جاهزة. خرجنا إلى حقولٍ من نور ونار. قلت: "أريد الماء" أجلستني على الماء. قلت "لا أحد يجلس على الماء" قالت "اجلس على الماء" جلستُ فما بلغت نهاية ما، قاعاً.

طيور فاحمة، بين الخطاف والغراب. لكنّها رشيقة، طويلة، مشرئبـــــة في الماء، كأنما هي جامدة أو نائمة. قالت لي: "ليست نائمة، انفخْ !" ارتشفتُ. نفختُ. التفتَتْ نحوي الطيور. قالت: "انتهت الآن من عملها..." سألتُها: "وماذا كانت تعمل ؟" لم تجب.

أنا الآن على الماء، في الماء. لا أبلغ قاعاً ما. شيء كرويّ، لزج، يتحرّك تحتي. أمسكت به فإذا هو رأس عصفور. قلت له: "أنت بلبل فماذا تفعل هنا ؟" قال: "أنا في حجم قلبي." ثم غطس وعاد لينبثق من الماء: لاح منقاره أولاً، ثمّ رأسه. والتحق بالطيور الأخرى، السوداء...

والآن، مرّ، يسبح تحتي، رأس أكبر. توقف بيني وبين الماء. أمسكتُ به بقوّة. كان رأس بطة. لكنه بحجم رأس أرنب. أمسكت بالرأس بين يديّ. وقفتُ وجعلت الطائر الذي يشبه البطّة، ورأسه بحجم رأس الأرنب، بين فخذيّ. ضغطت على العنق بيديَّ، وشددت الجناحين بفخذيّ حتى أمتلك الحركة الأخرى.

خفت أن تختنق. ظللت أضغط وأرخي. أركض وهي تحتي. زادت سرعتي. كانت عضلاتُها قوية. صارتْ تمدّ عنقها أمامي وتمطّ عضلاتها، وأنا أتركها تفعل ذلك، كي تتمكن من التقاط هواء نقيّ.
قالت لي: " هذا جيّد، اركضْ وأخْمَصَا قدميك إلى الوراء، كالعدَّاء" قلتُ: "... القزم خلفي، يركض وفي يديه مقصّ..." سألتني: "كيف رأيته وأنت تراني ؟" أجبتها: "لست أراك" ألحّت: "سألتك كيف رأيته ؟" قلت: "هكذا، مصادفة، ارتطم به أخْمَصَا قدميّ من وراء." واصلتُ الركض. وكنت كلّما رفعت أخمصيْ قدميّ عرقلتُ تقدّم القزم بمقصّه. أكان يريد مؤخرة البطة أم ... شيئاً منّي ؟
ومن سرعة الرّكض حبسته في زوبعة من لهاث. أنا أيضاً صرت ألهث حتى بلغتُ ماءاً نحاسيّاً راكداً على السطح. قلت: "الآن، أعود" فصارت تبكي وقالت: " تستطيع الطيور أن تتكلم في الحلم فقط !" قلت: "لكنّ كلامها مثل تزاوج في الحلم، تواصل جوّاني..."

قلتَ لي: "أنا سحابة !"

وحلّ الصيف مرّة أخرى.
جاء والدك إلى المزرعة. رأيتك معه فتذكّرتُك. قال لي: "أمّك تبقى معنا في المزرعة، أما أنت فتتولّى تدريس ابني طيلة فصل الصيف".
مريم فرحت لأنّها رأت فيكم قبساً من أنوار المدينة إذ تلوح ليلاً من مصطبة المزرعة.
كنتم حزمة ضوء بالنسبة إلينا جميعاً. لكنكم كالضوء تبقون معنا بقاء الصيف.
تحرّكتُ نحوك فهربتَ منّي. حاولتُ تدريسك فقلتَ لي: "أنا سحابة!" وكان لك جناحان. كنتَ تعذّبني وتفرحني. تخافني وتتعلّم منّي. أغريك بالعينوس والبنكا،

فتنسى حدود أعضائك والمكان. أسألك "أنت طفل أم ثعلب ؟" فتجيب: "كسرت قائمتي اليمنى !" ثمة لحظات كنت أحسبك فيها غبيّاً أو غائبا، فأشعر بالشفقة عليك وكأنّني فاجأتُك بالنداء، فأخرجْتُك مذهولاً من عالمك.

كنتُ أدرّسك تحت التّينة.

"التّينة ! التّينة ! " تقول لي.

فهل بقي منها شيء غير كلماتي وحنيني الذي يسكن تلك الكلمات؟

كنتَ تختار لي أكبر حبّة ناضجة وأنا أقول لك: "لا، لا، يكفي" فتردّ: "هذه فقط ! هذه فقط !" وألتَهِمُ التّين حتّى يفعل بي ما يفعله بك درسي: النوم !

وعندما تستيقظ تتفَاجَأُ بي بين الأشجار: "الشجرة الوحيدة القارئة هي أنتَ" تقول لي "لكنّ الشجرة الوحيدة التي لا تعرف كيف تعلمني، هي أنت أيضاً !"

أسمعك الآن بين النوم واليقظة تهذي تحت شموس الصّيف: "كلّ شجرة سألتُها وحدي فعلَّمَتْني. أما أنتَ فلم أسألك. والدي هو الذي سألك. جاء بك شجرة متحركة إلى صيفي الخالي من المقاعد والأحذية. أنت تعلّمني العودة إلى الشتاء. أمّا الرمّانة فقد علّمتني كيف تختفي البومة، دلّني السفرجل على العطش في خدود الجدّات. وعلّمني اللّوز أن أتحسّب لألْفَةٍ بين فلقتين. وعلّمني التّين الشوكيّ ضرورة الوقوف على الرأس. وعلّمَتْني شجرة اللوز الوحيدة التي تسلَّقَتْها دالية برّية أن كلّ ما في بستان أبي لا يعادل ثلاث حبّات عنب مفاجئة. ولن أقول لك ماذا علّمتني تلك التّينة البرية النائية عندما حادت عن الدّروب حتّى لا تنجب ويطمع فيها بشر. لا تغري الطفل فتؤمها الطّيور للرّاحة. عندئذٍ يعود إليها، فالتاً، ليرى زَرْقَ الطيور البرّيّة متيبّسا على أوراقها، والنملَ صاعداً نازلاً في أيامها، والبومةَ منتظرةً حركة في زوايا صمتها. من هناك يمرّ الإنسان ذات يوم ويفلت الساكن الأوّل في جسده، من خُطاه".

وتسألني: "أصحيح أنّها نبتت من سَلْح طائر أكل تيناً لتوّه، وحلّق كي يغرس تينة معزولة؟ هل تمنّيتَ مرّة أن تُدفن تحت تينة بريّة، لتنام في النّهار، وتخرج ليلاً مع الزّواحف، كي تسهر سهرة لا يسهرها أحد ؟"

كأنّني أراك الآن ...
المزرعة، العين، السكّة، القناطر، النّهر...
آلاتي، ومدافعي، وجداجدي ...
كأنّني أراك، تعيد كلّ شيء من جديد.
لكنّك كنت تعيش في الأرض، لا في الحكايات.

حلم آخر ينقصه الماء والطيور

ذات مساء صيفي ممطر، بتلك الأمطار المفاجئة التي تُسقط التّين الناضج من أغصانه إلى حرارة أخرى يتنفسها باطن الأرض، حدَّثتْكَ عن العينوس، وكيف غادر القرية وتركني فبدأت بالتأويل. ولم أجد خيطا يربط بين العين والعدسة والقزم ذي المقصّ. لكنني تأكدت أنه العين البعيدة الماكرة التي تراقبني عندما أراقب نفسي تراقب خوفي، فتحبّه أو ترفضه، وعندما أجعلك تتحدّث عنك فإذا أنتَ عني تتحدّث، وتكتشف خوفي فتستبقني وتعلّمني.
وإذ أسألك تسكت قليلا ولا تجيب، فأستحثّك على الإجابة. تقول:
ـــــ بات الجواب معروفا ...
ـــــ كيف ؟
ـــــ أخوك أجاب عن السؤال.
ـــــ وما هو الجواب ؟
ـــــ الجواب عنده وليس من حقّي أن أنقله على لساني.
ثم ينتقل الحديث عن مريم فتفاجئني :
ـــــ أحببْتها سمّيتها "مريم البطة".
ـــــ لماذا ؟
ـــــ لها أنف البطة ومشيتها !
ـــــ هل تحبّها حقاً ؟
ـــــ نعم، ستذهب معنا إلى المدينة وتبقى عندنا قبل الذهاب إلى العاصمة.
ـــــ هي التي قالت لك ذلك ؟
ـــــ نمتُ عندها البارحة. هل أحكي لك ولا تفشي سرّي ؟
ـــــ نعم.
ـــــ احلف !
ـــــ حلفتُ.
ـــــ قمتُ في الليل فوجدتها بجانبي. رفعتُ ريشها والتصقْتُ بها.
ـــــ ولم تستيقظ ؟

ـــــ كلا .
ـــــ ماذا فعلتَ بعد ذلك ؟
ـــــ لم أفعل شيئا .
ـــــ لكنّ قلمك لا يكتب، أقصد لم يصر قلماً بريشة حبر، بعد!
ـــــ الريش عند مريم، أما أنا فقد فرحت بالسرّ حتى الصباح.
ـــــ تركته حتى الصباح ؟
ـــــ أنا نمت ...
ـــــ وبعد ذلك ؟
ـــــ حلمت .
ـــــ بم حلمت ؟
ـــــ حلمت حلماً مخيفاً !
ـــــ أحكه لي .
ـــــ علىَ أن تفسّره لي.
ـــــ اتفقنا.
ـــــ حلمت ببطة بين فخذيّ، كانت دافئة مثل رأس أرنب، فعرفت أنها مريم. لكن ما لم أفهمه هو ذلك القزم الذي كان يهجم عليّ من الخلف وفي يده مقصّ ...
ـــــ وفي يده مقصّ أيضاً؟ ماذا كان يريد ؟
ـــــ كان يريد أن يقصّ ...
ـــــ وأنت ؟
ـــــ ظللت حتّى الصباح أركله بأخمصيْ قدميَّ !
ـــــ وهل كان هناك ماء ؟
ـــــ كلا، لم يكن هناك ماء، كنت على الأرض.
ـــــ ورأيتَ غربانا، خطاطيف ؟
ـــــ لا أتذكر، نسيت.
ـــــ عليك أن تتذكر !
ـــــ ما معنى هذا الحلم ؟
ـــــ لست أدري. حلمك ينقصه الماء والطيور.
ـــــ لعلّني رأيتها ونسيت ؟
ـــــ قد تراها مرّة أخرى. هل جرّبت في السابق ؟
ـــــ نعم .
ـــــ أين ؟
ـــــ في المدرسة.
ـــــ كيف ؟
ـــــ مُدَرِّستنا الفرنسية تجلس على الكرسيّ وأنا ذكيّ كما تعرف !
ـــــ أعرف فعلاً !
ـــــ لذلك تُجلسني في المقعد الأمامي.
ـــــ فترى كلّ شيء...
ـــــ لا أرى فقط. صرت أغار من مدرّس العربيّة. يأتي ويطيل الكلام معها، فلا يتركها تجلس لي.
ـــــ لك ؟
ـــــ نعم.

ـــــ لماذا تجلس لك ؟
ـــــ لأنّها عندما تجلس، أدخل في دوائر، داخل دوائر، حتى يغيم كلّ شيء، وأندم قليلا.
ـــــ لماذا تندم؟ بسبب الماء ؟
ـــــ بسبب الدوائر، دوائر ساخنة من ضوء وهواء أحمر فقط، تنبثق مهتزّة وتحملني ...
ـــــ أنتَ على الباب إذاً !
ـــــ بلِ قرب النافذة تماماً، لأنّ مكتبها قرب النافذة.
ـــــ كلّ من يمارس سلطة ما، يرسل بطفل إلى الحرب.
ـــــ أيّة حرب ؟
ـــــ حرب المقصّ.
ـــــ هل عدنا إلى القزم ؟
ـــــ عدنا ...
ـــــ سأضع له فخّاً في المرّة القادمة.
ـــــ فخ في الحلم ؟
ـــــ أجهّزه له في رأسي منذ الآن !
ـــــ كيف ؟
ـــــ أجملُ وضعٍ لمريم عندما ترفع يديها مبسوطتين إلى الأعلى، فوق المخدّة، وهي نائمة. تنتظر نزول شيء من السماء الواسعة...
ـــــ وما يكون هذا الشيء ؟
ـــــ تنتظر نزول نجمٍ صغير من سماء واسعة. وهي لا ترفع ساقيها أيضا، حتّى لا تبدو مثل كناري فقدَ الغناء، فتهيَّأُ للموت على ظهره، رافعاً قائمتيه إلى الأعلى، لإحساسه بأنّ الموت هو سقوط السماء التي كان يطير إليها، وصعود الأرض التي كان يحطّ عليها، فيرفع قائمتيه ليحُولَ دون هذا الانقلاب. لكنه يبقى هكذا حتى الصباح فيكتشفه الطفل ويهيّئ له قبراً صغيراً تحت التراب.
ـــــ مهلاً، مهلاً ! هل تقصد أنك ستدفن القزم ؟
ـــــ سوف أفتكُّ منه المقصّ قبل فوات الأوان.
ـــــ لماذا ؟
ـــــ لأنّه يريد قصّ الريش.
ـــــ الرّيش ؟
ـــــ ريش البطّة !
ـــــ لم أفهم شيئاً.
ـــــ لأنّكِ لم تؤوّل لي حلمي ...
ـــــ قلتُ لك إن حلمك صعب.
ـــــ ينقصه الماء والطيور ؟
ـــــ كلّ مَنْ يمارس سلطة يجهّز طفلا للجبهة...
ـــــ أيّة جبهة ؟
ـــــ جبهة الموت.
ـــــ هل عدنا إلى القزم ؟
ـــــ عدنا ...
ـــــ أنا الذي سأرسل به إلى الجبهة !

أمّا الــنّداء الأوّل ...

جئتُ لأعلّمكَ فكسرتَ المرايا.
تغيّرتْ مريم. تعلّمت أشياء كثيرة. صارت تفهم العالم انطلاقاً من متابعة نشرات الأخبار والبرامج الاذاعيّة والتلفزيّة. حدّثتني عن البرنامج الذي تفضّله شخصيّاً لأنّه يقدّم المواهب الجديدة في الغناء "تلك هي فرصتي" قالت "لأصير مطربة مشهورة" وضحكت ثم قدّمت لي هدية لم أكن أتوقعها: زجاجة عطر رجالي.
أحسست أنّ كلامها يأخذها منّي. قلت لها إنّني صرت أكتب. وأسْمَعْتُها:

يا مريم
عندك الحق
كبرتِ وزدتِ ما بيَّ
في صدرك رمّان تفلق
والشفّة بُوسة ورديّة
سرّك كنز ما تسرق
تغطّيه تينة بريّة

فَرِحَتْ وقالت "سأغنّيها ! "
وهكذا صرنا كلمةً أقولها، وصوتاً أسمعه.
أمّا النّداء الأوّل ...

أكّدت لي مريم أنها ستلتحق بالمدينة. وحتّى إذا لم تنجح، مثلي، في العيش هناك، فإنّ لديها أكثر من فكرة. قالت: "عندي أختي في باجة، وبعدها عندي العاصمة، وعندي الغناء !"
سألتها :
ـــــ هل بدأت تتخلّين عنّي ؟
أجابت بغنج :
ـــــ ولماذا أتخلّى عنك ؟

صار السؤال موجّها إليَّ. لكنني سألتُها عنك، أنتَ !
ـــــ يحبّك، أليس كذلك ؟
ـــــ الملعون، كسّر المرايا التي أهديتَني إياها !
ـــــ سأشتري لك مرآة أجمل.
ـــــ ما من حاجة إليها، المدينة هي المرآة الأجمل! سنسافر في نهاية هذا الشهر!
ـــــ ستتركينني ؟
ـــــ ألم تتركني أنت أيضاً ؟
أجبتُ بصوت ليس صوتي :
ـــــ لكنني هنا !
ـــــ لم أشعر أنّك عدتَ ولو للحظة واحدة !
أدركت خسارتي وسكتُّ. فتركتْني متمايلةً، وسألتْني من دون أن تنتظر إجابة :
ـــــ على فكرة، لماذا لا تذهب أنت أيضاً ؟

اصــطــدمــتُ بــأرواح هــائــمة

لقد ذهبتم كلّكم وبقيت بِلا مرايا. سقطتُ في ما كنتُ لا أصدّقه: كتب أبي الصفراء. كتبت اسم مريم على أَثَرٍ منها. ترحّلت في اللّغة والرائحة. قرأت ما لا يقرأه الذين في عمري وفي أرضيَ. اختلطت الأتربة والرياح والأمزجة. كان لبعض الكتب روائح شحوم ولحوم، ولبعضها طقطقة عظام وأنوار كواكب. دخلت في الأدمغة وخرجت من الأنابيق. حاربت بالسيف وطعنت بالقلم. ضمّدت جراحي بحكاياتْ الحب وأشعار التائبين. عشت حيوات أتوغل فيها فأتساءلُ "أين حياتي ؟" تعثرت خطاي في الحلم وفي الواقع. صار كلّ مَنْ حولي صغاراً، يتحرّكون في زمن أسحبه منهم فيغيبون، أو أبسطه لهم فيحضرون. يموتون كما أشاء أو يحيون حسب التوقيت الذي أختاره لهم. لذلك فقدت عقلانية إقامتي على الأرض.
أمّا أمّي: "أنت تذكّرني بالعرابي، يا بني، أمضى عمره يقلّب صفحات الكتب، تحت ضوءِ القنديل." وبكت لأنّ الكتب تبعد الإنسانَ عن أرضه وأهله.
كتبتُ اسم مريم على أَثَرٍ منها. وحوله كتبتُ "ألقيتُ عليكِ محبّةً منّي، تسع مرّات. وبعدها ألهبت، وعطفتُ، وطيّرت، وخطفت قلبي." علّقتهَ على وتد حمارٍ أسود، ثم غمرت الأثر بالوتد وردَدْتُه إلى مكانه. ضربتُه: "أيها الوتد، إني أَخَذتك، ومن ها هنا قلعتك، ولمريم سمّرتك، لا تحول ولا تزول إلاّ حولك."
جعلتها فتيلة وأوقدتُها في سراج جديد بزيت طيب "جلبت مطلوبي من محبوبي، وليس لي حبيب سوى القريب المجيب، يا خادم الحرف، يا الشمس في الوهيج، جعلتك إليها جوادي، وأقسمت عليك بربّ العباد..." "اكتبْ" قال لي العينوس "أمّا الكلام فثرثرة في الرّيح".

هل سافرتْ مريم بسبب موهبتها في الغناء؟ هل استحوذت عليها الصورة التي تبثها العاصمة؟ هل وصلت إلى عاصمة أحلامها الآن ؟
هل جرى كلّ شيء في العتمة؟ في الحلم؟ في أية طبقة من روحي كانت مريم؟ لماذا تبقى في داخلي؟ أحاول طردها فتعود. تقتلني التفاصيل.

ساكنة في قلب الثمرة
وتتباع في كلّ المواسم
وصاحبها كما الجمرة
يذوب وحبّه دايم
لا تفكّر في اللّي يقرأ
ولا في اليكتب تمايم
تبدّل اللّوزة بالتمرة
ولا تهمّها لوعة الهايم
ساكنة في قلب الثمرة
وتتباع في كلّ المواسم

أدركت لحظة العودة إلى الخارج: تخرج فيسألك الناس: "ماذا أصابك؟ لماذا تغيّرتَ؟ لماذا ضعفت ؟" لقد هبطت في تلك الحفرة. وكان كل شيء ممكناً. كان قاعها يهبط بي، ثم يهبط. لكنه توقّف. نعم. توقّف. لو هبط القاع أكثر لأقْدَمت على الانتحار غير مكترث. فلا أحد ليقول لي: "احذرْ يا ..." لذلك أكلت المخدّة وكدت أفقد سنا. لم أعد أعرفني. فقدْتني في خطواتها وأنفاسها ورائحتها وضحكتها المتعالية.
دخلت أبواباً وراءها. جبت ممرّات وشوارع وحافلات. رأيتها مع من لا أريد وحاولت قتله. لاقيْت أشخاصاً كثيرين ميتين، واصطدمت بأرواح هائمة ثم عدت قليلا. لم أعد.
كانت كلّ سنة أمضيها في قرية كاف الحجر، متسقّطاً أخبار مريم، تزيد في اقتلاعي منها حتى لم أعد أشعر بالمكان تحت قدميّ. حسبت أنني سأنساها عندما تركتكم إلى العاصمة. لكنّ تراجع مريم إلى منطقة راكدة في ذاتي، جعلها تشكّل أقسى بؤرة، لسفر آخر، يحرّكني في حياتي: منطقة الألم.
أهربُ من ماضيّ إلى أوهام أيّامي القادمة فتعيدني إليه. تعيدني إلى صغري فلا أكبر كثيراً، وأكبر، أعانق أخي، وأركض إليه، لأحكي له حكاياتي بصوت مسموع وأصف له أراضيّ الجديدة التي لا تحدّها سوى ذرى الألم.
ازداد اقتناعي بضرورة مغادرة المكان. لم أكن أعرف سببا محدّداً لذلك الشعور المزدوج الذي انتابني: هجوم طفولتي عليّ، ثمّ إحساسي بحزن شفيف، يقول لي إنّني أكبر... فهل يكبر المرء وهو لايزال يطأ آثار الخطى التي مشاها في طفولته ؟
قلت أغادر إذا، حتّى أراني بعيداً عن تلك الخطى. لكنني هربت من هشاشة الكائن المقيم إلى هشاشة الكائن المترحّل.

القسم الثاني

امرأة المستنقعات

بِــركة السّــنهوري

لقد انقطعنا تماماً عن تلك الجبال الزرق التي يأتي منها النّهر، ويثابر العينوس على قطع سفوحها وشعابها، مصطدما بثعالبها وضباعها.
لكي نصل كان يتوجب علينا أن نسلك أحد منفذين؛ الأوّل، تذكره؟ نسمّيه طريق الغطس: عليك أن ترمي بنفسك في بركة السّنهوري التي تتقدّم المستنقعات، وتنتظر الخروج بعد فترة. والمشكلة تكمن في تلك "الفترة". كيف تواجهها، وتراها، قبل أن تعيشها، وتطمع في الخروج من الضفّة الأخرى ؟
أمامك، دونها، احتمالان : أن تعود طافيا إلى الضفّة التي انطلقتَ منها، أي التي رميت بنفسك فيها، أو أن تندفع مع الماء في متاهة الكهوف الصخريّة، وهناك يُنتظر منك أن تكون قادرا على السباحة. حوادث الاختفاء قليلة هذه الأيّام. ومع ذلك يحتاج المرء إلى قليل من الجرأة.
النساء نادرات في هذه الطريق.
مرّة واحدة، تناقلها الجميع، كانت هناك واحدة أطلقها الماء قبل بلوغ الضفّة، فلاحت مثل تشكّل مدهش لامرأة في لحظة التكوين، إذا كنت تعرف ماذا يفعل الطين بالمرأة، عندما يعيدها الى مرحلة تشبه بداية الخلق، من حَمَإٍ لا من ضلع. امرأة طينية يستطيع كل راوٍ للحكاية أن يضيف إليها ما يشاء، بفعل أصابعه أو عينيه، لأنّ الطين في حالته المَرِنة تلك، يكون قابلاً للتشكل في ألف حكاية.
أنا لم أصادفَ امرأة في الطين حتّى الآن، وقد اقتربت من حافة الماء. عيناي تغتسلان، وأنفي يشمّ ما تتخيَّلانه، ويداي تكبران بالمرأة التي تتضاءل حتّى تصير في حجم ما أريد. أحوّلها إلى كتلة. أعيد تشكيلها ثم أجفّ فيها، تحت شمسي.
في تلك الحفرة، الهبوط، كان كل شيء ممكنا. ما ألذّ موتي غير مكترث ! التقيت أرواحاً هائمة. كانت ملكي. كانت تأتي منّي. لذا سمّيت نفسي آخر. بعد ربع قرن دقّ أحدهم على باب ابني. أسْمَعُـــــــه: "بابا ! بابا ! شيخ أسود بالباب، قال لك : ديوني ! " وبعد نصف قرن دقّ أحدهم على باب حفيدي : "جدّي ! جدّي ! شيخ أسود بالباب ؛ قال لك: "ديوني !"
النساء نادرات في هذه الطريق.
ثمة طريق أخرى تجعلك أشبه بمن يتسلّل إلى بلاده عبر مناطق وعرة، وحدودٍ وهميّة، غامضة.
لقد خفتُ آخر مرّة. أتذكّر كيف تركت أخي، بعد أن وعدته بالعودة للغطس في بركة السنهوري. لكنني ظللت أكبر وهو لا يفعل. اتفقنا في البداية أن نذهب معًا. أركبته على البغلة ورائي ثم تركته لأشتري له أرنباً. تركت الأرنب عنده واشتريت شايا وسكراً لأحملهما معي. وعندما بلغنا بركة السنهوري بقينا واقفين، متردّديْن، متأسّفيْن نصف نهار. من منّا لن يرى الآخر ؟

كنّا نشاهد العابرين مرّة، ونفرح بنرجسة، كي ننسى، مرة أخرى. غطس فارس بحصانه وخرج. مرّت عربة وظهرت. كلهم كانوا يطلّون من الضفّة الأخرى، ثم يتوجّهون صوب المستنقعات.
جاء مسافرون آخرون وخيّموا قربنا. كم كانوا مختلفين ! أحدهم سأل عن بركة السنهوري وهو يراها. وكان هناك شيخ ذو عمامة منهمكاً في قصّ شعره وحلق لحيته متمرئيا على سطح الماء، يجفل من البعوض وينفض موسى الحلاقة. وبينَ حركة ونظرة، يسأل مَنْ حَوْله: كم الساعة الآن ؟ فلا يجيبه أحد. فيكتفي بهذه الإجابة.
تركت أخي معهم، لقضاء حاجة، ثم توغلت في فضول بسيط، تطوّر، فتوغّلت فيه أكثر... قلت لمَ لا أجرّب الطريق الأطول إلى العينوس، الطريق التي لا تجبرك على الماء؟ بدأت بالسؤال، وانتهيت بالإجابة عن كل خطوة أخطوها، بالتوغل في خطوة تليها.
هناك معالم وأحداث مازلت أذكرها.

ثـــلاثـــة أقـــزام مغاربـــة

لن أنسى تلك الأراضي.
هي التي فتحت أمامي أبواب التعرّف والاعتراف، وجعلتني أعود مرّة أخرى إلى نداء يحركني ويقنعني بأنّ لي شيخاً نبَّهني إلى العلامات: ترى إذا كان "الخضر في البحر واليسع في البرّ..." هل يكون العينوس في المستنقعات ؟
مرايا كريستالية تتكسّر تحت أقدام شعب هزيل يعيش من الملح ومن الصيّد في ظلال امبراطوريّة لا ينعكس اسمها على شكلها. فيأتي الناس محمّلين بالبط والأملاح كي يقايضوها بصناعات صغيرة تفتح الباب للعالم الخارجي حتى يتسلّل عبر الألوان والأشكال الصغيرة المتعاظمة يوماً بعد يوم.
أرض تهريب وحيوانات منقرضة وبريق.
أرض قوت شحيح وتهريب عبر التخوم.
دَنوت من الماء وفي ذهني أن أصطاد سمكاً. كنت منصرفاً إلى تأمل سطح البحيرة، ومراقبة حركة الأسماك فيها، قبل أن أفكّر في الوسيلة التي سأصطاد بها. وفجأة رأيته!
كان يمتطي صهوة بغلة مزركشة. كلاّ، لم يكن هو! كان يهذي:
ـــــ السلام عليك! أنا قزم مغربي... نازلي، بوكشّاش، بليم، قمبري.
لاح يرتدي حلّة عظيمة، كما في الحكايات، وعلى ظهر البغلة خُرْجٌ مزركش، وكلّ ما على البغلة مزركش :
ـــــ هل أنت جابر الطرودي القادم من كاف الحجر؟ شلبة، سوبية، لاتشة.
ثم أخرج القزم المغربي قيطاناً من حرير وقال لي :

ـــــ كَتِّفْني وشُدَّ وثاقي شدّاً قويّاً وارمني في البركة... ولك مائة دينار... اسكمبري، سردينة، سردوك.
عبّرت له عن استنكاري قائلا :
ـــــ وكيف أفعل ذلك ؟
ـــــ لا تخف! اصبر عليَّ قليلاً، فإن رأيتني أخرجت يديَّ... ساعدني. شورو، حبّارة، بوقة!
غير أنّه لم يخرج إصبعاً واحدة.
وجاء بعده قزم مغربيّ ثان، يهذي بأسماء أخرى لأنواع السمك (دنديق، أغوسته، منكوس، بلاميطة...) قال إنه شقيق الأوّل. فكتّفته ودفعته إلى الماء. ولما غطس انتظرته ساعة، فلم تظهر يداه، بل رجلاه !
قلت : "مات في داهية، إن شاء الله تعالى كلّ يوم يجيئني المغاربة وأنا أكتّفهم، ويموتون. ويكفيني من كلّ قزم مغربي ميت مائة دينار."
لم أعد في حاجة إلى الصّيد وفي جيوبي مائتا دينار. قصدتُ الدروب الملحيّة الغبراء التي تباع فيها السلع. وهناك طلب مني التجّار أن أقوم بوظيفة الكاتب العمومي والمترجم، مادمت قارئاً كاتباً.
وهكذا بَدَأْتُ تنهال عليّ أسرار القوم ومشاغلهم: رسائل واعترافات واتصالات بكبار الامبراطورية، هدايا وأموال وعمولات ونساء وسلع مهرَّبة.
قلت أعود إلى بحيرة الأقزام المغاربة لأرى ما يحدث هناك، أي في المكان الذي اصطدت منه رأسمالي الأوّل.
وقفت أتأمّل الصور الأخرى، تلك التي يخفيها السطح. فإذا صوت يصيح مهرولاً، وصاحبه يجرّ بغلته المزركشة باتجاهي :
ـــــ أين كنتَ كلّ هذا الوقت ؟ تن، لاج، أنشوة، قاروس.
ـــــ ومَنْ أنتَ ؟ سألته.
ـــــ أنا القزم المغربي الثالث، شقيقهما الأصغر! تريلية، منّاني، بوري، قرنيط، مرجان.
كتّفته بالحرير وألقيت به في الماء. لكنّه لم يُخرج رجليه كما فعل شقيقاه.
خرجتْ يداه من الماء، أوّلاً.
وكان يقبض على سمكتين بلون المرجان.
وفيما كان جسده يتقطّر ماءاً، قفز على بغلته المزركشة قائلا:
ـــــ أنت حَصَلْتَ على الدنانير المائة، أما أنا فقد حصلت على السمكتيْن المرصودتين على اسمك!
سألته دَهشاً :
ـــــ وماذا ستفعل بهما ؟
وضع السمكتين المرجانيَّتيْن في خُرْجه ونخس بغلته :
ـــــ سأفتح بهما كنز فاس ومكناس العجيب... هكذا تقول العلامات!
ثم صاح وهو يكاد يطير فوق بغلته :
ـــــ سلام الله عليك يا ابن سعيد الطرودي إنْ كنتُ قد أهلَكْتُكَ!

بـــيـــت الجـــدّة

لقد طال الزمان الآن !
صخور وأعشاب. شعاب ملتوية. قبور مسيحيّة تلمع كالعاج، تعود إلى حروب سابقة. سطوح قمريّة ذات فوهات بركانيّة مملوءة بمياه نحاسيّة راكدة. عليك أن تحذر الإنزلاق أو الغرق، لتصل إلى طريق مشجّرة بالصفصاف تقودك إلى "بيت الجدّة". سمّيناها "الجدّة" لأنّها جدّة العابرين. تستقبلك بالبساطة ذاتها التي قد تكون استقبلتك بها في عبورٍ سابق.
تعدّ لك شاياً مائيّاً حائلاً، تغليه للمرّة الألف على موقد شبه مطفأ. فتغادرها قبل أن تشرب منه، بينما تصرّ، هي، على الغناء مع إبريق الشاي:
ساعات تشوفني برْوَاقة فرحانة
ساعات تشوفني كالقطاط السود
لاهثة فزعانة
ساعات تقول أميمة
نلقاها في طريق الغابة بردانة
ساعات تشوفني عود قصّيبة
يزيد على مابك يا كبير الطحّانة
عندئذ يلوح زوجها الشيخ الفاني، غير مكترث بمن جاء، أو بمن لم يجئ. يلوح متفسّخاً في العالم تماماً. لكنه يعود إلى بيته عندما ينتبه إلى غياب سهيل، لأنه "ابن عمّي التائه" يقول. ولا يكترث لغرفة البيت الوحيدة التي تفوح منها روائح قديمة لعقارات دنيويّة، ادّعى نزيلٌ في آخر مرّة، أنّها أشبه برائحة فراشات الضوء والصراصير، لكن الجدّة لا تقتل صرصوراً واحداً وربّما كانت تطبخها حيّة.

كَسْر الصُّور واكتشاف أجسام بشريّة

تدفّق المبشّرون والتّجار والعلماء على أرض المستنقعات. ولم يكن ذلك عائداً إلى اكتشاف معدن جديد أو فراشة نادرة، بل بسبب ظهور امرأة المستنقعات.
كانت امرأة جميلة القدّ والملامح، لكنْ في الحدود التي تسمح بها حالتان من حالات الطّين : عندما يسيل على جلدها، أو عندما ينشف ويتشقّق.
لم يصدّقها أحد في البداية، وقالوا عنها إنها واحدة من تلك الحالات التي تعصف بها المستنقعات بين موسم وآخر، ثم صاروا يبحثون عنها، فيتقرّبون إليها مرتجفين، ويستِضيئون بها أو يتدفّأون، ثم ينسونها قليلا، ويعودون ليطلبوا منها هواءً منعشاً، وقت هبوب السّمائم على المستنقعات.
أمّا هي فتطلب منهم إعمال رفوشهم وفؤوسهم على سطوح السّباخ الملحيّة من أجل كسر الصّور، لأنّ كل ما هو خارجها يُعتبر مرآتها. غير أنّ كسر الصور أدّى إلى اكتشاف أجيال من الأجسام البشريّة التي حفظتها المستنقعات بفضل الملح.
وبدأتْ سيّارات المستكشفين تعقب مجيء الأقزام المغاربة الباحثين عن الكنوز.
نوديتُ بأن أجنبيّا يريد مقابلتي بأمر من أميرة الطّين، وأنا المؤتمن على أسرار الآخَرين ومخاوفهم وقصص حبّهم، جاءني الدّارسون والباحثون والمستكشفون.
فقلت : "أهرب من هذه الأرض أيضاً !"
أوضحت لأميرة المستنقعات الهشة أنّ قِيَماً جديدة ستعصف، ولن يبقى في المستنقعات سوى الأملاح والعبيد...
لكنّها اعترضت على كلامي:
ـــــ أتيتُ بك للتّرجمة، وليس لإسداء الرأي !

ســـرّ العـــيـــن

التجأتُ إلى كوخ الجدّة وسألتها عمّا إذا كانت تعرف العينوس أو تسمع به. تململتِ في جلستها وحدّقت في وجهي موافقةً، وكأنّها تراني لأوّل مرّة، ثمّ قالت : "آه ! أنت أيضاً تريد حكاية ؟ اسمعْ إذاً :
"كان يا ما كان؛ كانَ في إحدى البلدان عين شاردة ترى كل شيء، مثل تلك العين الحرّة التي ترى للناس في أحلامهم. أرادت هذه العين أن تستريح من ترحّلها، مرّة،

فشرعت تبحث عن انسان كي يرى بها. وجدت كلّ الناس لهم عيون ولا يريدونها. لكنّ رجلاً حكيماً نصحها بأن تبحث عن شخص أعور، وتسكن عينه التي لا ترى ؛ شخص تراه بومةٌ من الجهة اليمنى فلا يراها، أو يجيئه برغوث ليلسعه من الجهة اليسرى فلا يراه.

وحدث أن صادفت العين رجلاً أعور لا يبصر إلا بالعين اليسرى. قالت له:

ـــــ أنا عين ضائعة، تعبت من الأحلام، وأريد أن أسكن عندك.

فأجابها :

ـــــ تعالي من الجهة الأخرى لأراك !

ـــــ لك عين في الجهة الأخرى، وأنا أريد هذه، قالت العين.

ـــــ نتكلّم معاً في الجهة الأخرى، ثمّ نتفق على اليمنى، قال الرجل.

مالت العين، متسائلة "لماذا لا يلتفت هو ؟" وأتته من اليمين، فوجدت محجره الأيمن فارغاً :

ـــــ أستطيع أن أسكن هنا ؟ سألته.

ـــــ نعم، إذا اتّسع لك المكان.

فطمأنَتْه العين قائلة :

ـــــ لا تخف ! سوف أوسّع المكان أو أخرج بمقلتي قليلاً.

ـــــ بهذه الطريقة أصير جاحظاً بعين، وأَوْساً بعين أخرى، قال الرجل.

ـــــ اسمك أوس أم جاحظ ؟ سألته العين.

ـــــ لست جاحظاً حتى أكون كذلك، أنا اسمي أوس.

ـــــ وأنا اسمي عين.

ـــــ اسم على مسمَّى ...

ـــــ صار لنا اسمان والحال أننا سنصير شخصاً واحداً.

ـــــ أنت لست شخصاً بل عين، قال أَوْس معترضاً.

ـــــ نعم أنا عيَن، لكنْ عندي انسان اسمه مقلة.

عندئذ أمرها أوس :

ـــــ اُدْخُلي !

ـــــ لن أدخل حتّى أصير أنا أنتَ، وأنتَ أنا.

ـــــ إذا دخلت صرنا كذلك !

ـــــ كلاّ، سيبقَى لنا اسمان، أنا عين وأنتَ أوس.

ثم استدركت العين لتسأله :

ـــــ ما معنى أوس ؟

ـــــ إنّه من أسماء الذئب.

ـــــ آه، تنهّدت العين، مرّةً سكنتُ عينِ ثعلبٍ. اكتشفتُ أنه يبول في عين ماء. صرت أغمضني متعمّدة عندما نبلغ العين. لكنه ظلّ يستخدم عينه الأخرى. لم نتفق فتركتُه. هل أنت ابن عمّ الثعلب ؟

ـــــ لا . أنا بشر، من عين واحدة، ولحم ودم.
ـــــ أريد اسماً مشتركاً بيننا حتى نصير أنت أنا، وأنا أنت.
ـــــ وأيّ اسم سنختار ؟ سألها أوس.
ـــــ اسمك ! قالت العين.
ـــــ لكنّك لا تريدينه؛ فهو اسمي وحدي.
ـــــ أعطني الهمزة، أتوكأ عليها، وأضربك بها إذا بلت في الماء.
ـــــ ستتركين اسمي ناقصاً.
ـــــ كلاّ، سأضع اسمي في موضع الهمزة، وأدخل في عينك اليمنى.
عندئذ قال العينوس بصوت واحد موحّد :
ـــــ اتفقنا !
صار العينوس يرى كثيراً لأنّه ينام بعين، فتسهر عينه الأخرى، تلك التي لا تعرف النوم، وتستطيع العيش على حساب غيرها.
ومن طول الانتباه وإدامة النظر، صار العينوس، الذي كان اسمه أوس، يشتاق إلى همزة اسمه، ويرغب في قليل من النوم متّكئا على تلك الهمزة.
بات يشكو من الارهاق والعين تُطَمْئنه "يكفي أن تعرف وتتعرّف حتّى تكتسب ألفاً أخرى، ولاما أيضا، لنا معاً !" غير أنه لم يكف عن الشكوى من شدّة اليقظة والتَشنّج لأنّ سلكا بصريّا فيه لا ينام أبداً.
يقول السّلك في دماغه "طنق !" فتنفتح جفن العين الأخرى. وبعد محاولات للنوم ترتخي الجفن بلا نوم. لكنّ صوراً ومشاهد ونجوما تركض تحت جفنيه :
صورة مضيئة : فيها أرنب يركض : يتوقف الأرنب.
صورة مضيئة: فيها شجرة تتمايل : تتجمّد الشجرة.
صورة مضيئة: فيها زاوية حادة لجدار في الشارع: رجل في آخر الشارع: يمشي ثم يتوقف: تمشي امرأة ثم تتوقف... حتى تصير قصّة حبّ.
والغريب أنّ تلك الصور كانت تهجم على العينوس من دون جهد أو رغبة في التخيّل.
والأغرب أنّ العينوس بات يحس أن أكثر الصور تأتي من ماضٍ لا يعرفه، ولم يعشه. فإذا كلّ شيء يرنّ في الماضي، أو خلف عينيه، ويأتي بأسماء الموتى، وكأنّه يخاطبهم.
ذات مرّة، رأى في صورة، من تلك الصور المضيئة، أنه قادر على الطيران، كما يريد الأطفال، إذ أنّ العين دفعت به إلى الطيور، قبل أن يدفع بها إلى الذئاب أو الثعالب، والطيور دفعت به إلى الخفّة. فحلّق فوق روائح وأصوات وألوان، وخرج منها صامتاً معطّراً.
ولم يكد يفرح بقدرته على الطيران حتّى تحوّل فرحه إلى خوف، لأنّه لم يتعلّم، قبل ذلك، كيف يحطّ على الأرض من دون أن تنكسر ساقاه، فظلّ يطير.
رأى فيضانات، قال: "أستطيع تجاوزها محلّقاً" غير أنه فوجئ برياح غير مواتية، أي أنها كانت تعيده إلى الوراء، أو تجبره على النزول مؤقّتا والاحتماء من العاصفة.
فكيف يحطّ ؟

ولم يلبث أن سقط في أرض غريبة وراء سيول الماء.
ظلّ ينتظر! لكن، ماذا عساه ينتظر ؟ ومَنْ ؟
كيف يخرج من تلك الأرض الغريبة، وهو لم يعد قادراً على الطيران من جديد ؟
اقترحت عليه العين قبل أن توافق على النّوم أخيراً :
ـــــ علينا أن ننام ونحلم.
ـــــ نحلم ؟ بماذا ؟
ـــــ نحلم بأن الطيور نزلت إلى الأرض أخيراً، وألِفَتْها إلى الأبد !
ـــــ وبعد ذلك ؟
ـــــ نطير نحن ! نلعب في الفضاء ! ونتغلّب على الطيور !
ـــــ كيف ؟ ولماذا ؟
ـــــ لأنّها لم تتمكّن من اصطيادنا بفخاخها !

لم تكد الجدّة تنهي حكايتها حتّى بادَرْتُها معلّقاً ومتسائلا :
ـــــ لكنْ، ما علاقة هذه الحكاية بالعينوس الذي أعرفه ؟
ـــــ هل تسأل عن علاقة هذه الحكاية بالعينوس ؟ اِسألْ قبل ذلك عن علاقة العين بالحلم !
ـــــ لا أجد الخيْط الرابط ...
ـــــ يكفيك، إذا كنتَ تبحث عن المَغْزَى، أنَّ عيناً لا تنام قد نامت في آخر الحكاية. ويكفي أنْ تحكي مثل هذه الحكاية لطفلةٍ، حتى تنام.
ـــــ ليست لي طفلة حتّى الآن !
ـــــ سوف تصادف طفلة، أو تصادفك، وتحرّك فيك ما قبل هذا الكلام... أليس المغزى من حياتنا كلّها أن نحلم و.. ننام ؟

مـــغـــارة الـــرؤيـــا

كانت أميرة المستنقعات امرأة من طين حقّاً. بدأتْ مادّتها من صلصال لتطبع كلّ ما هو روحي فيها إذْ ينشقّ عنه الطين : نظراتها، انطباق شفتيها، تمفصل حركاتها، ثم انسياب صوتها الذي يجبل أوامرها: "إليّ بالتّرجمان الغريب !"

مَثُلْتُ بين يديها، تحت أشجار نخيل غير مثمر، يظلّل أكواخاً خشبيّة. اقتربتْ منّي وأمرتني أن أقتدي بها. سرى وهج مخضلّ بالطين بيننا. انتعشت الأعضاء. مددت يدي لأصافحها فلم تفعل، وأشاحت عنّي بوجهها. لاحت عضلاتها الخفيفة مختلجة في أعلى ظهرها العاري. شعرت أنها تناديني، بل تأمرني بأن أفعل ما أنوي. مددت يدي ووضعتها على منحدر الظهر تماماً، ثم صعدت بها إلى عنقها فتكسّر الطّين شظايا على شعرها. ولم ألبث أن توغّلتُ في حركة تقشير محمومة باحثا عن الثمرة المتوهّجة، من قمّة الرأس إلى منزلقات السفوح الصغيرة، عبر تكورات ملساء حليبيّة ينشق عنها الطين.

اصطدمت أناملي بملمس رطب. تَوَقَّفْتُ حائرا ولم أتقدّم أكثر. لكنّ أميرة الطّين شجّعتني:

ــ لا تكن متفرّجًا ومنفصلاً، لا تلهث وتراوح !

بحثت عن مكامن البكاء فيها والضحك، عن طفولة كانت، ونضج سيكون. تقدَّمْتُها وتأخّرتُها. طفْتُ بمراحل حياتها كلّها.

وعندما سمحتْ لي بالانصراف وهممتُ بتوديعها قالت :

ـــــ لا تتوقّفْ في موقف الوسط حيث الكثرة والدّهماء. ولا تسكن الصّمت الذي يغدو فيه الجميع طيناً هلاميّاً يسبق التشكل. امْشِ على الحافات، وانتقل إلى أراضِ بكر تبتكرها في خطواتك. لستَ منّا، ولا ينبغي لك أن تكون كذلك، لم تخلق للعيش في مثل هذه المستنقعات. أمّا حكمتك المتعثّرة فتجعلك جديراً بزيارة المغارة.

ـــــ أيّة مغارة ؟ سألتها.

ـــــ مغارة الرؤيا ! أجابت، ثم نادت : "إليَّ بالحراس ! "

انطلقتُ مع الحرّاس باتّجاه المغارة. وفي الطّريق التحق بي شعب من العراة وأنصاف الجائعين يصيحون "الكنز ! الكنز ! " خضنا في الطين وقطعنا الوادي حتّى بلغنا سفحاً كلسيًّا منقوشاً. عندئذ توقف الجميع وتقدّمت وحدي.

انفتح باب المغارة وخرج شيخ من ظلام السنين.

ـــــ ها أنتذا تتقدّم ونحن نراك، قال، هل جئت لترى الأوّلين ؟ وهل الأوَّلون مجرّد كتب وجماجم ؟ لماذا تنقطع عن المكان وكأنّك في أوّل الرحلة؟ أتبحث عن الحقّ أم

تبحث عن المعشوق ؟ لا يتبلور العشق إلاّ في غياب المعشوق. لا قوّة للحضور إلاّ بذكرى الغياب، وهل تتكاتف الأعضاء إلاّ بدنوّ الخطر ؟

ـــــ هل أنا الآن مرميٌّ في الماضي ؟ سألته.

ـــــ بل في مستقبل سبقك إليه آخرون وارتموا فيه من أجل استثمار آلامك.

ـــــ تقصد القزم أم مريم ؟

ـــــ لست أكلّمك رائياً أو متنبّئاً. كثيرون هم العابرون كالبرق، أولئك الذين يرون ويحكمون ويرحلون، فماذا ترى في الذين جاؤوا للتأويل ؟ ما حياتك إنْ لم تجعلها معطاةً لك، متخيّلةً أمامك ؟

ـــــ كيف ؟

ـــــ اِبْدَأْ بتخيّلها ! ولابدّ لك من زاد للطريق، أنت الطالع من قرن لتفسّر به قرناً آخر !

ـــــ أخشى أن ...

ـــــ لا تخشَ شيئاً ... امشِ الآن وراءها.

ـــــ وراءها ؟

ـــــ حياتك التي تخيَّلْتَها ...

ـــــ مازلتُ أعيش وجوداً زائفاً.

ـــــ لا حقيقة إلاّ وتمرّ عبر الوهم ...

ـــــ أخاف ...

ـــــ الخوف يقود الخلق ... وقد تكون أنت ضحيّة يقظتنا فيك، فلا تخيّب آمالنا !

ـــــ وهل أنتم موتى ؟

ـــــ موتنا أصبح يقظتنا !

ـــــ ازداد الفهم تعقيداً ...

ـــــ عليك أن تلهث وراءه إذا رأيت المجهول يركض به !

ـــــ أريد لروحي إقامةً لا تشرّداً.

ـــــ لقد أُعطيتَ حياتَكَ فاذهب إليها الآن. لا أحد يكبر إلاّ باتجاه الماضي !

خرجتُ من المغارة فاستقبلني شعب العراة خائباً، مزمجراً، نافضاً أسماله، ملوّحاً بأياديه :

ـــــ أين الكنز ؟ أين الكنز ؟

ـــــ الكنز ؟

ـــــ ألستَ أنت جابر الطرودي ؟

ـــــ أين كنز فاس ومكناس العجيب ؟

عندئذ خطبت خطبة قصيرة، تحدّثتُ فيها عن الأقزام الثلاثة، فرجمني الشعب بالحجارة.

كنتُ في كوخ الجدّة عندما جاء حرّاس الأميرة ونقلوني مكبّلاً بالحديد.

هــذا فــخّ! لا أحد يريــد حكايــات!

آه لو أيقظتْني الجدّة قبل مجيء الحرّاس ! لماذا لم توقظيني قبل مجيء الحرّاس أيّتها الجدّة ؟ جرّوني إلى سجن معزول بين المستنقعات. وهناك ظل يراقبني حارسٌ بارد المزاج.

بدأت الحكاية هكذا : "أحببتُك يا مريم. التحقتُ بك إلى العاصمة بعيداً عن مستنقعات الظلال والأملاح. وكان عليَّ أن أريد ما أتخيّل : حملتكم بالسيّارة في نزهة. توغلت في اتجاه ممنوع. كنت بعيداً جدّا عندما سمعت دويّ الصفارة. كنت أستطيع الهروب. ولن يلحق بي. لكنني سقت السيارة إلى الوراء كي أمتثل للقانون، فما الخطأ إذا كان الامتثال للقانون بالسّير إلى الوراء ؟ تركتكم في السيارة ونزلت إليه. كان يغازل فتاتين. انتظرته طويلا. تمدّدت على الطريق. نمت على ظهري. لم يكترث. بعد ساعات ذهَبَت الفتاتان. التفت نحوي قائلا :

ـــــ ما أوسع صدَرك ! هات أوراقك واتبعني !

قلت " إنّ مخالفة المشي إلى الوراء، ليست مخالفة، على ما أعتقد، ولا تتطلّب منّي أن أتبعك، حتى وإنْ كان ذلكَ إلى الأمام" قلت ذلك في صدري لأنني لم أرغب في مجادلته حتى لا أغضبه (أنت في السيارة تعتبر داخل عرينك، إذا نزلت له، وخرجت منها، فقد بدأت تكسب ودّه...)

سرْت معه.

أخَذني ـــــ وأنتم تنتظرونني ـــــ إلى مبنى يتوسّط حديقة ذابلة الأعشاب والأشجار. كان هناك زملاء كثيرون له. وفي حركات قليلة، تخللها صعود سلالم صغيرة وتغيير غرف، وجدت أنّ حذائي قد استبدل بحذاء آخر،وسترتي بأخرى، ثمّ قميصي ... ثمّ أنا.

لَزمني ولم يوضّح لي شيئاً.
وهَذه بعض أقواله المتناقضة:
ـــــ مشكلتك بسيطة، بضعة دنانير، مخالفة، تدفعها، وتتعدل الأمور.
ـــــ لا يمكن أن تخرج من هنا بأيّ شكل من الأشكال.
ـــــ انتظرْ، سوف تعرف كيف تخرج من هنا.
ـــــ لا تعدْ إلى الحديث عن السَّيْر إلى الوراء في طريق ذات اتجاه ممنوع. تلك مشكلة انتهت.

وأمام هذا السيل من المبرّرات المربكة حول تهمة غامضة، قلت له متوسّلاً :
ـــــ اسمعني، أرجوك، جئت من أراضٍ أخرى، وفقدت نصف عاداتي...
انتظرت منه أن يقول لي "وكيف كان ذلك ؟" غير أنه أجاب بحسم:
ـــــ آه، إيه ...هذا فخ ! لا أحد يريد حكايات هنا، مفهوم ؟
لم يزد على ذلك. لكنه ظل يحوم حولي ليقول لي في النهاية:
ـــــ مشكلتك بسيطة ...
ونقرَ على كتفي بإصبعه فتراجعتُ. اقترب منّي، مرّة أخرى، فأثار حيرتي أكثر :
ـــــ لست أدري، قد تخرج بسهولة، لست أدري...
انتابني شعور يختلط فيه القرف بالخوف. وأدركت أنّني سأبدأ بالتعوّد على هذا السجن. أنه سجن وكفى. وفي السجن تبدأ مثل هذه المساومات.
لكنّ إقامتي لم تطل في هذا السجن تحديداً. كان لابدّ من الانتقال إلى معتقل أوسع.
وهناك وجدت القزم قد سبقني مدَّعياً أنه هو الشخص الحقيقيّ، ذو القامة الطبيعيّة، بينما أنا، شبحه ذو الظل المتطاول عبر الدروب.

لابدّ من مرحلة يرى فيها المرء أقلّ
فيلجأ إلى إعادة الرؤية

كم كان في مقدور المرء أن يحبّ تلك البلاد !

لكنني طُرِدْتُ منْها شرَّ طردة، بسببك أنتَ، أيها النّحس. ترافقني الآن وسط الغابة وهَيْئتُكَ أقرب إلى قرد، أيها الشبح اللّعين !

ـــــ بل أنت الشبح !

في زوّادتي كسرة خبز يابس.

يسوقوننا وكأنّنا لم ندخل الغابة بعد. أشجارها لا تنمو. نتقدّم مغلولين في لهب شهر حارق. نار ودخان. نمل كبير هارب يتسلّق سيقاننا. هل تغريك ألوانه ؟ لأنّك لم تَرَ في حياتك نملاً أخضر ؟ النهر ساخن، مياهه تغلي فتهرب منها الحيوانات. تمشي إلى الوراء وتزداد تضاؤلا، مثلك أيّها الشبح المشؤوم.

ـــــ قلت لك لستُ شبحاً. عندما ظَهَرْتُ في ماضيك كنتُ مجرّد صورة، أمّا الآن فأنا الحقيقيّ وأنت الشبح لأنّك تسكن حاضري وتتحرّك أمامي !

هل سمعتَ الأجراس، أيّها اللعين ؟ بل هي صفّارات. دويّ طلقات من هذه الجهة، ومن هذه الجهة أيضا. أنت تسمعها من هناك ؟ ينادوننا بالاسم. معنى ذلك أنهم ينتظروننا، هل تسمعهم ؟

ـــــ انظروا ...

ـــــ آه، جاء صاحب الأقزام !

ـــــ هذا جابر الطرودي !

ـــــ معه قزم واحد.

ـــــ ومَنْ أدراك ؟ في كلّ قزم خمسون قزماً !

ـــــ نحن الآن منشغلون ...

ـــــ آه ، نعم !

ـــــ هذا النّهر التّعس، لم تصبه الحمّى إلاّ في هذا الوقت !

ـــــ ينبغي أن نجتهد للسيطرة عليه.

ـــــ مازال يهذي بالحمّى والوقت يمرّ ...

ـــــ لا أرى طريقة للسيطرة عليه !

روائح كريهة. دخان وشياط وعفونة. عرق. ديدان تزحف في جسمي. براغيث تحت جلدي. كأنّ جرذاً أسود لا يكفّ عن التّلوّي في بطني. الخبز وحده لا يكفي. له مذاق

زبل. افعلْ شيئاً مفيداً وكفَّ عن المشي إلى الوراء وجَرِّي معك. نقِّ لي جلدي. أسْكِتِ الجرذ الجائع في بطني.

أرأيت في أي حريق ورَّطَتْني مطالبُ ذلك الشعب ؟ أنت السبب. انظرْ إلى ذلك الشاب كيف يقلع سلسلة ذهبيّة من عنق تلك الصبيّة. صاحت: "سيبني ! سيبني !" فقطع سلسلتها الذهبيّة. لم يدفعها بخشونة. أما ذلك الشاب الثاني فهو يبحث عن فلوس الدنيا. يتجه نحوي. لقد سدّد رشَّاشاً. أرفع له يديّ بكلّ استجابة. أتهيّأ لأدلَّه أين يجد كلّ شيء وأحدّثه عن محتوى كل جيب من جيوبي... لولا المشادة التي حصلت. علا صوت إطلاق نار. التحق مسلّحي بمصدر النّار مثل رصاصة...

ـــــ يحاولون السيطرة على حمّى النّهر وأنت تقفز وتضحك ؟

ـــــ تك ! تك ! تك !

ـــــ ماذا أصابك ؟

ـــــ فقدتَ شيئاً لا تدركه الآن ! تك ! تك !

ـــــ الساعة ؟

ـــــ كلّهم ينامون دجاجاً ويستيقظون ديوكاً ! تك !

ـــــ سأفعل مثلهم.

ـــــ تك ! كيف ستجد وقتك الخاص ؟

ـــــ امش إلى الأمام ولا تقفزْ، لقد جاؤوا.

ـــــ دانتيلا ! هل تعجبك هذه الكلمة ؟

أخذونا مع آخرين، اثنين اثنين، خارج الساحة. الحرّاس على اليمين والجمهور المعتقل على اليسار. بعض الحرّاس يلوّحون لنا ويبتسمون كأنهم متواطئون عن عجز.

وصلنا إلى مبنى عال غير مكتمل، يشبه سطح قلعة. مكثْنَا فترَة ثم غيّروا رأيهم. أنزلونا. نظرت مرّة أخرى إلى الأسفل. إذا نِمْنَا هنا سوف نسقط من ضيق القلعة.

لكنهم غيّروا رأيهم. نزلنا واحداً واحداً. سِرْنَا بين الأشواك والقش والأحجار. كلّ واحد يصل وحده. أنا لم أصل بعد، مازلتُ أتحدّث مع أحد الحرّاس.

ـــــ أنا جابر الطرودي.

ـــــ وإذاً ؟

ـــــ ما اسمك أنت ؟

ـــــ البهبهاني، هل هذا يفيدك ؟

وصلت وحدي. اقتربت من القلعة المتداعية. قلعة أخرى تختلف عن الأولى. كم هي ممتدّة ! خرج لي شاب في يده رشاش من وراء أحد الجدران. وأشار إليّ آخر: "اهربْ ! اركضْ ! سنهرّبك ! سنحميك !" كلاّ لن أهرب. سأدخل القلعة مستسلماً مثل غيري. خفض الشاب سلاحه وعاد إلى الغرفة الحجريّة. فَرِحْتُ لأنّني لم أقع في الفخّ.

ـــــ تك ! أنا نبّهتك !

ـــــ كنتُ وحدي.

ـــــ كنتُ على كتفك أتحدّث، تك !

ـــــ لم أسمعك.

ـــــ قلت لك يمتحنون استعدادك للهروب. تك !

تسلّقتُ بقايا سلّم القلعة إلى منتصفه. ومن هناك شاهدت زنجيّا متلفّعا ببرنس وخلفه كلبة والدة.

خرجتْ مسلّحة بشعة فأحببتها، لأنّها جميلة من الدّاخل :

ـــــ اسمك رحاب ؟

ـــــ اسمي زروان.

ـــــ هل أصعد من هنا كي أكون تحت مراقبتكِ ؟

ـــــ دَعْنِي !

ـــــ أحبُّ أن أكون دائماً تحت رقابة ؛ أنا لا أغشّ.

ـــــ ومَنْ أدراني ؟

ـــــ الذي يرعاني لا يقتلني لأنّني أدلّه عليَّ.

ـــــ اصعدْ وادخلْ من هنا.

دخلتُ من الباب المخرّب الذي خرجتْ منه مسلّحتي لتوّها.

يا لها من ساحة واسعة، كأنّها للغائبين كلّهم. وقفتُ على الشرفة فإذا جمهور من كلّ الأعمار والأجناس.

جاءني أثيوبي وقال لي... لست أدري. جاءت زروان أخرى. دفعتني بحربة رشاشها :

ـــــ ماذا تفعل هناك مع أثيوبي ؟

ـــــ لا شيء.

ـــــ هات الساعة.

ـــــ شكراً، ستنقذينني من القزم.

ألْقَتْ زروان الثانية بساعتي على الأرض. إلى الآن لم يأخذوا أوراقي ولا بقية أموالي. فلتذهب الساعة لتدقَّ على أرض القلعة أو في جحيم النهر. لم أحاول تناولها من الأرض لأنّ مسلّحتي لم تقل لي خذها. لاشكّ أنّها توقفت الآن بسبب الصدمة.

ـــــ أين زروان الأولى ؟ أنا الآن بلا وقت ولا ساعة.

ـــــ ذهبَتْ إلى النّهر. مهمّتها هناك.

ـــــ هل تسمحين بأن أطيعك أنتِ ؟

ـــــ ادخلْ !

لم أكن في حاجة إلى الدّخول. لكنني لم أشأ عصيان أوامرها. قضيت ضرورة لا أعاني من ضغطها حتى لا أغش زروان الثانية التي تحميني الآن. ولما خرجتُ من المراحيض لم أجدها.

بعد الأثيوبي جاءني صومالي هرم. أصرّ أن يأخذ منّي ثمناً لشيء لا أعرفه ولم آخذه. أدخلتُ يدي في جيـــبـــي فوجدت أوراقاً مهملة. قال:

ـــــ أريد النيكل أو النّحاس.

رمى بالودع على الأرض فقلت له :

ـــــ أنتَ لست مسلّحا... وأنت كالاثيوبي... سوف أتركك.

تركته فلم يلتحق بي. اقتربت من زروان ثالثة، سمّيتها سهام لأعبّر لها عن طاعتي.

ـــــ الآن عرفْتَ المراحيض. فلا تبحث عن مكان آخر، قالت.

ـــــ ساعتي !

التحق بنا المسلّح البهبهاني وقال :

ـــــ لن تجد ساعتك، ربّما التقطها أحدهم.

ثمّ بدأ يسرّح شعر مسلّحتي. قلت للأثيوبي الذي عاد واقترب منّي:

ـــــ زروان رمت بساعتي ثم عادت لتأخذها.

قال لي :

ـــــ سأعطيك حجاباً فيه ثلاث قطرات دم من ثدي امرأة مرضع.

ـــــ هل مات ابنها ؟

ـــــ أنت تجد ساعتك والمرضع تستعيد حليبها.

ـــــ لكنّني سأبقى محبوساً.

ـــــ كلاّ، سوف أمكّنك من دخول السائل واختراق اليابس.

وجدت ضحكة لم أعرف لمن أصرفها.

جاء مسلّح قصير وأراد تفتيش جيوبي:

ـــــ انتهت الاستراحة وعليك أن تعود إلى الزنزانة.

قلت في نفسي : "يريد ساعتي مرّة أخرى" :

ـــــ لا تفتّش جيوبي.

صفعني بعنف. رأيت أنه لا يحمل سلاحًا. سألته :

ـــــ ماذا أفعل ؟ أأَخَافُ منك أم لا ؟

وجد الساعة في جيـــبـــي فأخذها. قلت له متوسلا:

ـــــ أقسم لك أنها لم تكن في جيـــبـــي.

ـــــ سوف أعيدها إليك لدى خروجك.

ـــــ متى أخرج ؟

ـــــ هذا ليس شغلي.

داخل الزنزانة لم أعرف أحداً. ليست زنزانة بل قبو كبير، ننام فيه جميعنا.

ـــــ لا أحد ينام على ظهره، كلّكم على الجانب الأيمن.

تداخلنا مثل أسئلة تريد حلولاً وتستكين. أردت أن أنقلب على ظهري لأعدّل من خَدَر جسمي، قليلا. صرتُ أراه أكثر. صاح بي الحارس الذي لا يحمل سلاحاً :

ـــــ لا تَنَمْ على ظهرك، ولا على بطنك.

ـــــ سأنام على جنبي الآخر.

ـــــ لم يحن الوقت بعد، سوف تُخِلُّ بالاتّجاه، هيَّا !

همس لي السجين الذي يقرأ كتباً كثيرة، مقرفصاً في النهار ولا يعتدي عليه أحد:

ـــــ علينا أن ننام نوم الأجنّة، نحن أبناء الثورة غداً !

ظل ضوء خافت في القبو، تتعملق فيه ظلال جرذان كثيرة، راقبتُها حتّى الصباح ولم أنم.

ـــــ سوف تعتاد النّوم بعد هذه الليلة، قال لي المغربي.

في الصباح أيقظونا بالصّراخ. قمت قبل الصرخة الأولى. لكنّ المساجين سبقوني. لست أدري أين. أخذوا يتدافعون. التفتَ نحوي سجين ذو لكنة بدويّة وقال لي :

ـــــ هيّا إلى ماسورة المياه، سوف تعتاد التّزاحم بعد ثلاثة أيّام، لأنّ جسمك يكون قد شرع في مطالبتك بذلك.

بعد الاغتسال أكلنا فولاً، وتعرفتُ على شيخ أسود، نحيف، غائر العينين، قال لي إنّه من أغاديس وسألني :

ـــــ من أين أنت ؟

ـــــ أنا جابر الطرودي، من كاف الحجر.

ـــــ آه، كاف الحجر ؟ أعرفها! اِسألْهم، إنْ عدتَ،عن التّاجوري.

ـــــ وهل زرتها حقًّا ؟

ـــــ دائما أزورها ! البارحة كنت هناك !

ـــــ لماذا سجنوك ؟

سكتَ ثمّ دسّ يده اليسرى في جيب سترته الدّاخلي وأخرج كُتلاً صغيرة، سوداء، مخضرّة.

ـــــ بسبب هذا ... !

ـــــ ولم يصادروه منك ؟

ـــــ بل أطلبه منهم فيزوّدونني به. إذا احتجْتَ للسجائر سوف يشترون لك، لكنهم لا يعطونها مجانا.

اقترب منّا السّجين الذي يقرأ الكتب كثيرا، وكان يستمع إلى حديثنا:

ـــــ أنا أيضاً أطلب منهم بعض الكتب فيأتونني بها.

ـــــ لماذا يوافقون على كلّ شيء ؟ سألته.

ـــــ ألم تقرأ شعار السجن ؟

ـــــ كلا.

ـــــ لو انتبهتَ وأنت تدخل لقرأتَ على المدخل "السجن مدرسة..."

تناولت منه كتاباً لَفَتَ عنوانه انتباهي "جسدك بين مرايا السجن" وبدأت أقلّب صفحاته. جاء الحارس :

ـــــ لماذا تقرأ الكتاب ؟

أعدت الكتاب إلى صاحبه وانسحبت إلى الزاوية. أفضّل الزّاوية دائما عندما لا تمتلئ الزوايا. عاد الحارس وسألني معنّفا :

ـــــ لماذا لا تقرأ الكتاب ؟

بقيت صامتاً وهو يركلني ركلاً خفيفاً. ثم تركني وانسحب. بدأ الجرذ يتحرّك في بطني. تفرّد بي في الزاوية. قلت له :

ـــــ استرحتُ من الحارس لتبدأ أنت ؟

ـــــ أريد القزم !

ـــــ لا أعرف أين القزم الآن.

ـــــ انه مع زروان الأولى.

ـــــ ماذا يفعل معها ؟

ـــــ يبصر جمالها الداخلي فيرى القوّة تدخل وتخرج.

حان وقت الاستراحة فذهبت أبحث عن التاجوري، الشيخ النّحيف الذي يخترق الجدار ويزور كاف الحجر. وجدته يحفر حفرة صغيرة:

ـــــ أطمر كنزاً للأيام القادمة.

ـــــ أريد أن أحكي لك حكاية أقزام.

ـــــ هذا فخّ ! لن أقول لك : وكيف كان ذلك ؟

ـــــ لماذا ؟

ـــــ لأنني أعرف حكاية القزم.

ـــــ أين هو الآن ؟

ـــــ في المقبرة.

ـــــ هل مات ؟

ـــــ كلاّ، ذهب يبحث عن الذبابة الزرقاء.

ـــــ زروان الأولى ؟

ـــــ الذبابة الزرقاء. ألم أقل لك ذلك سابقا ؟ انظرْ ! ها هو ذا يرتمي على الذبابة. يمتصّها. يبصق جناحيها. إنه يهرب الآن باتجاه ذلك الكهف الجبليّ كي يهضم ما أكله. انظرْ ! هو ذا داخل الكهف. يا لها من أكوام ريش وأجنحة وعظام دقيقة. والكهف يتّسع بمقدار ما يدخله من بقايا القزم.

ـــــ هذه حكاية أخرى. وأنا أشعر بماء زروان منعشاً في حلقي.

ـــــ إنّها بشعة.

ـــــ أحبها كثيراً.

ـــــ عايشْ ماءها واهربْ منها...

ـــــ أشعر بالبرد.

ـــــ انكمشْ على نفسك.

ـــــ البرد شديد.

ـــــ تخيَّلْ هَبَّة ساخنة من النّهر.

ـــــ أغوص. لا أستطيع.

ـــــ لن يراك أحد. اِبْحثْ عن أماكن أخرى.

ـــــ لم أعد أرى.

ـــــ لابدّ من مرحلة يرى فيها المرء أقلّ فيلجأ إلى إعادة الرؤية.

ـــــ كأنّك العينوس !

ـــــ كأنّك تعيد الرؤية وقد وُلدتَ مضاعفاً.

ـــــ لماذا ؟

ـــــ لأنّك تسلك طريقاً فترى طريقاً آخر...

ـــــ هذا كلام الجدّة !

ـــــ وتحبّ امرأة فتجد فيها امرأتين.

ـــــ تقصد مريم ؟

ـــــ تعيش أقل فتستعيد العيش، وأنا أقصد أكثر من ذلك.

ـــــ الآن فهمت من يكون القزم ! أريد القزم !

ـــــ فات الأوان.

ـــــ لماذا ؟

ـــــ لأنّهم أمسكوا به ... انظرْ ! لقد وصلوا!

رأيتهم : أحدهم في المقدّمة، ووراءه اثنان يمسكان بشبكةٍ يتلوّى فيها القزم. أخذوه إلى الغرفة البيضاء. رأى زروان الأولى والثانية والثالثة. كنَّ ممدّدات على أسرّة بيضاء. أخذوه إلى الغرفة السوداء. رأى الجروح والكسور وبقايا الأطراف. نقلوه إلى غرفة ثالثة مغلقة، تفتح على الغرفة السوداء. وهناك أخرجوه من الشّبكة. فلم يعد يرى ما حوله من خلال الثقوب. صاح "دانتيلا" وكرر الصّيحة ثلاثاً. مدّدوه على بطنه. عرّوا مؤخرته. عندئذ صاح رئيسهم:

ـــــ إليّ بالإبرة والخيط !

راقبتُ العمليّة كلها لأنّ الشيخ التّاجوريّ الذي زار كاف الحجر، أسعفني بما يتيح اختراق الجدران.

خاطوا مؤخرة القزم. شعرت أنني من طين وماء. صرت أنثى. سمّيتُها واغتسلتُ. ذهبتُ إلى البهبهاني كي يثني عليَّ. بحثت عن الأثيوبي كي يحدّق فيَّ بعينين من نار بعيدة.

لم أكد أهمّ بالخروج حتّى رأيت القزم يغادر غرفة الخياطة مهرولاً. كان أول من رأيتُ. فتبعتُه مثل فرخ إوزّة فقس لتوّه، وركض وراء أول جسم يتحرّك أمامه، معتقداً أنه إوزّة. لكنّ القزم أسرع كالبرق وتركني. في فمي مذاقٌ حلو مالح. وفي بطني جرذ يتكلّم مثل إذاعة بعيدة تظهر وتختفي. صاح القزم من بعيد :

ـــــ قنبع ... دانتيلا ... ناووس !

ركض في سيول ناريّة، وكأنَّ خمسين قزماً يتدفّقون معه. صحت:

ـــــ اربطوه ! اربطوه !

لم يستمع إليّ أحد.

ـــــ فات الأوان ! قال التاجوري.

هاج القزم. افترس القطط والجرذان وكلّ ما يتحرّك. ولمّا امتلأت معدته تكتّل كلّ شيء في المصران الغليظ: ريش، لحم، نمل، عشب...

صار يركض ويصيح. يهجم في الليل، ويمزّق الحشايا والوسائد، الكلاب والنساء.

القزم شاحب، أدكن، عرقه منتن.

تساقط شعره.

بدأتُ أحك جلدي.

القزم يزداد عصبيّة. لم يعد يأكل. صار يعضّ، يبقر، يكسر، يبصق. يصيح:

ـــــ قنبع ! ناووس ! دانتيلا ! أريد العالم !

دوّى صوت العينوس في أذني :

ـــــ النّور للعين مثل الهواء للطير.

بعد أن جاب القزم الشعاب والجبال، النهر والحقول، عاد إلى القلعة.

بلغ البوابة. تكوّم على نفسه منتفخاً أمامها.

لم يعد يرى، أو يسمع، أو يشمّ.

ركض المسلّحون نحوه. حملوه ونقلوه إلى الدّاخل. جاء رئيسهم وقال:

ـــــ لقد تخشّب أخيراً، ضعوه في قفص.

تحلّق المسلّحون حول القفص فأمرهم رئيسهم بإخراج المعتقلين إلى الساحة.

لاح القزم هادئاً، مستكيناً، متصالحاً مع قضبان القفص.

جمهور المسلّحين والمعتقلين بين انتظار وهمس.

خيّم الهدوء والصمت.

وفجأة ...

دوّى انفجار هائل تزعزعت له أسوار القلعة وأطلقت مِلاَطَهَا. تشظّى القزم أشلاء... أفلتَتْ منه أقزام صغيرة، متناهية في الصغر، وركضت إلى جيوب العساكر والمعتقلين.

"بابا ! وِينو حلوى ؟"

مرّ زمنٌ لست أعلم كيف تفاوت مروره في داخلي وفي الخارج. هدأ الجرذ في بطني واستعدت العيش من جديد. لم أعد أرى، أو حتى أستعيد الرؤية؛ صرت أستَبِقُها.

لمحتُهم، ذات يوم، وأنا في القلعة، يتسلّلون عبر جذوع النخيل اليابس؛ هي مريم ! وابني، وابنتي. اقتربتْ منّي ابنتي آسرة. داعبتُها كما اعتدت فلم تفرح ولم تستجب. ظلّتْ متيبّسة، واقفة، متورّمة العينين. آسر، مكث هناك، على بعد مترين، جالساً على التراب. ومريم على حجر بجانبي. أحد حرّاس القلعة ورائي تماماً. أردت أن أقول لمريم: "فهمتُ الآن ... هذا معتقل دائم، وأنتم جئتم لزيارتي، كما جرت العادة بزيارة المعتقلين" لم أقل ذلك حتّى لا يسمعني. أدركت لمحاً أنّ زوّاراً آخرين جاؤوا لرؤية ذويهم.

لم يؤلمني السجن بقدر ما أجهشتُ بلا دموع عندما رأيت أفراد عائلتي المتخيَّلة متجمّدين ثلاثتهم، متورّمي العيون... أيّ ابتزازٍ جعل طفلاً عاطفيًّا يجلس بعيداً ؟ أيّ ابتزاز جعل طفلة لم تتجاوز الأعوام الثلاثة تفقد تلقائيتها ولا تقول " بابا ! بابا ! وينو حلوى ؟" هل هي مريم التي توصّلت إلى إقناعهما بالصمت والانضباط، بالخوف وبالرعب ؟

لماذا لم تنبّهني الجدّة قبل مجيئهم ؟ لماذا ؟

كنتُ استبقتُ زيارتهم على الأقلّ، كنت استبقت تلك الاختلاجات المقموعة.

نسيتُ! لم أتحدّث عن العطش! كان فمي جافّاً تماماً، والمستنقعات تحترق...

انتهزت فرصة انفجار القزم لأهرب. ركضت أبحث عن الماء. كان النّهر بعيداً. كانت العين بعيدة. خيّل إليّ أنهم يركضون ورائي. خفت. تحرّك الجرذ في بطني من جديد. صار يلتهم أحشائي. تركتهم يجمعون أشلاء القزم كي يخيطوها. سوف يحنّطونه ويضعونه في متحف القلعة كما فعلوا بالنّسور والثعالب والحدآت.

ركضت بين الشعاب. كانت أصواتهم تقترب ثم تبتعد. توغّلت في الضباب وصار الجرذ يسلب أفكاري، يتكلّمني "ها ها ها ... أنت تبحث عن الماء والماء ناري !... ها ها ها ... تركض بخمس قفزات إلى اليمين وخمس قفزات إلى اليسار، مثل قزم حقيقي !"

ـــــ ليتني بومة لألتهمك أيها الجرذ !

ـــــ أنا أحتمي بك. ها ها ها ...

ـــــ سوف أستعيد رأسي وأُخرجك من بطني.

ـــــ هيهات يا جابر !

ـــــ أنا لست جابر، أنا بومة !

ـــــ البومة تنقضّ على الخارج فقط وأنا فيك ها ها ها ...

ـــــ أنت جرذ أم قزم ؟

ـــــ نصفي حيّ ونصفي ميّت، وقد حان الوقت لنصفي الميت كي يرتاح ...

ـــــ قنبع ؟

ـــــ دانتيلا !

ـــــ أنت ؟

ـــــ لن تصير رجلاً، سوف تصير جرذاً، وقبل ذلك لابدّ أن نلتقي قريباً لأنّني مازلت ساكناً في أيامك القادمة !

ركضتُ وصوت الجرذ يتلاشى في داخلي مثل صوت إذاعة بعيدة، حتى أسعفني نَبْعُ ماء !

شربت. اغتسلت. وبقيت أسبّح للماء الذي أنقذني من صوت الجرذ.

تراءى لي العينوس على سطح الماء وكلّمني :

ـــــ كلّ ما رأيتَه في هذا الجزء من حياتك هو فم العالم ؛ عينك كانت عندي !

وجاءت جدّتي لتقول لي :

ـــــ كان ينبغي أن تفضّل العين الباردة حتّى مع البول !

وتعاقب مرورهم فوق الماء وتحت الشمس :

ـــــ ركضتَ خلف الوهم لتصير جرذاً، أنا أمّك، أمّك منَّانة !

ـــــ أرأيت عاقبة الرؤية الليلية ؟ أنا مريم.

ـــــ أرأيت عاقبة الكتب ؟ أنا العرابي.

وبعدهم أضاءت شمس القراميد :

ـــــ كنتُ سأوصيكَ بابنتي خيراً !

وأخيراً تناهى إليّ صوتُكَ، نعم صوتك أنت، يا طفل المزرعة، وقد حسبته صوت أخي :

ـــــ خدعتُك بأوّل حبّة تين وبقيتُ طفلاً كي تموتَ أنت! أرأيتَ ذلك الفخّ الحربيّ الكبير الذي نَصَبْتُه للقزم !

مَـــرَارة يـــعـــرفها الجـــدّ

ـــــ قد ينسى المرء أقاربه إذا لم ينسوه، لكنّه، في الأخير، يجد صاحباً أو صاحبين في الطّريق، ويكتشف أن الصّديق أفضل من شقيق هرب بالأرنب!

ـــــ ها ها ها ! نحن أيضاً نفعل !

ضحك الصاحبان كثيراً عندما عَلِمَا بأنني مررت بكلّ هذه التجارب بسبب محاولة الالتفاف على بركة السنهوري.

ـــــ لكنْ، تعال، سنساعدك على قطع نصف المسافة بشاحنة ألمانيّة. ركبت معهما فبلغنا محطّةً، علامتها الوحيدة مقبرة على سفح جبل. قال لي السائق الأصلع :

ـــــ عليك أن تؤدّي التّحيّة العسكريّة !

ـــــ لمن ؟

ـــــ للألمان !

ـــــ ولماذا أحيّيهم وهم أموات ؟

ـــــ لكي يتركونا نـــمرّ بسلام.

نزلنا من الشاحنة فانحنى الرجلان يكتبان، على قبرين، كلمات غير مفهومة.

سألتهما :

ـــــ ماذا تكتبان ؟

أجابا في وقت واحد :

ـــــ الجملة !

ـــــ أيّة جملة ؟

أجاب السائق :

ـــــ جملة الجدّة !

وحثّني زميله النحيف ذو السنّ الذهبيّة :

ـــــ ماذا تنتظر ؟ عليك أن تكتب جملة الجدّة !

ولمّا لاحظ ذو السنّ الذهبيّة اندهاشي سألني :

ـــــ جُمْلَتُكَ ؟ ما هي جملتك ؟

ـــــ أيّة جملة ؟ لم أفهم !

ـــــ الجملة التي أعطتك إيّاها الجدّة !

ـــــ الجدّة لم تعطني جملة واحدة، حكت لي حكاية طويلة وغنّت أيضا. أيّة جملة أختار ؟

ـــــ ماذا قالت لك عن البركة؛ بركة السنهوري التي هربت منها؟

ـــــ آه ! تذكّرت ؛ قالت لي : "تنظر في اتجاه فترى اتجاها آخر."

صاح الرّجلان :

ـــــ تلك جملتك، اكتبها على قبر الألماني !

امتثلتُ للأمر ثم بدأ ينتابني إحساس بأنني كتبت الجملة نفسها من قبل عندما زرت الجدّة في مرّة سابقة. أيعود ذلك إلى تشابه مقابر المسيحيين الذين تركتْهم الحرب عندنا، أم إلى مروري من هذا الطريق في المرّة السابقة، كي أتفادى بركة السنهوري ؟

نزلتُ من الشاحنة الألمانيّة لأنّ الرجلين ينويان الذهاب باتجاه الجنوب. قال القصير :

ـــــ معنا جثة أخرى ينبغي أن نوصلها !

فَاجَأني كلامه فسألته ببساطة :

ـــــ جثّة ؟ جثّة من ؟

أجاب الطويل ذو السنّ الذهبيّة :

ـــــ جثّتك ! انجُ بقشرتك !

لمستُ وركي فوجدتها. تكلَّمْتُ فنطقتُ. ومع ذلك ساورني الشكّ، سألتهما :

ـــــ أأجتاز المقبرة أم أسير بمحاذاتها ؟

أجاب الطويل ذو السنّ الذهبيّة :

ـــــ إذا حاذيتها تكون قد اجتزتها، وإذا اجتزتها تكون قد حاذيتها...

تملَّكَتْني الحيرة. وقلت في نفسي "لاشكّ أنهما مجنونان" قال القصير:

ـــــ "تنظر في اتجاه فترى اتجاها آخر" ألم تكتب جملتك ؟

ثم أشار إليَّ الطويل، ذو السنّ الذهبية، بحركة من أصابعه، فهمتُ منها أنْ "اذهبْ ليس هناك مشكلة" وأشار القصير، الأصلع، بحركة واسعة من ذراعه ليدلّني على آخر التلال التي يتوجّب عليّ اجتيازها قبل الانعطاف نحو الغرب.

مشيت، مشيت، مشيت.

حسبت العمر كافياً وخطواتي عملاقة بين العليق والأشواك والصّخور. لكنني أخطأت معالم الطّريق.

تذكّرت أهلي وأحبابي وعدت إلى مخاطبة أخي :

ــ ليتني فعلت مثلك، وبقيت إلى جانبك، مع جمهرة المتأهبين للغطس في بركة السنهوري. لماذا محاولة اكتشاف طريق أخرى ؟

تابعت المشي على إيقاع أسئلتي :

ـــــ ماذا فعلتَ يا أخي ؟ أين أنت الآن ؟

وفي لحظة واحدة، أبرقتْ منه، في دماغي، أجوبة كثيرة :

ـــــ لا أوراق لي، لا اسم لي، لا جسم. لا استطيع الذهاب إلى ما هو أبعد من بركة السنهوري.

وبعد صمت قصير أمطرني بسيل من النّصائح :

ــ احذرْ قطّاع الطرق، والثعابين التي تخالها بقايا حبال مهملة. انتبه جيّداً عندما تمرّ بفجّ عرّام العظام.

ألهذا السبب أخذ الأرنب ونصحني بارتداء قميصه فوق قميصي؛ أخي، شقيقي العاري ؟

ألهذا السبب تخلّى عن خطاي، حاملاً أرنباً كنّا سنركض وراءها معاً؟

كأنّني لم أعد في الموعد لأكبر بعينيّ وعينيه معاً.

ها هي ذي بركة السنهوري !

استلقيت للنوم كي أستعيد قواي، وأبحث عن طريق أخرى، قد يدلّني عليها الحلم، فرأيت امرأة طينية. أرأيتُها أم استَعَدْتُ رؤيتها خارجة من الماء؟ أفاجأها حضوري أم فاجَأَتْها عودتي، فحاولَتْ أن تداري عريها بالقصب ؟

"كأنني رأيتك من قبل" بادَرْتُها، ثم سألتها: "ألم تريْ طفلاً ضائعاً هنا، ومعه أرنب وبعض القراطيس ؟" أجابت من وراء عيدان القصب وأنا ألمح بعض عريها : "لا تتحدّث عن الطفل الآن وكأنّك لا تؤمن بمرور الزمن!" قلت : "عن أي زمن تتحدّثين وأنا لي زمنان، أنظر إلى أحدهما في داخلي، فأرى الآخر؟ سأَلْتُكِ عن طفل، هو شقيقي العاري..." خرجت المرأة من وراء القصب مرتدية ثيابها وقالت: "آه ذلك الطفل! لقد مرّ زمن الآن، عندما جاء شيخ أسود، فقفز إليه الطفل متعثرا بين خطاه. غطّاه بطرف برنسه ورافقه إلى هناك..." أشارتْ إلى عالية النّهر، إلى المنبع، هناك

حيث الجبال الزّرق، وأكملتْ: "لا تخفْ! كانا يبدُوان سعيديْن مثل جدّ وحفيد، لولا مرارة يعرفها الجدّ !".

حتّى في الحلم سبقني العينوس.

ينبغي أن أواصل بحثي عنه مهما كانت صعوبة الرحلة باتّجاه عَالِيَةِ النّهر.

لابدّ من الغطس إذاً ...

لماذا لم أفعل ذلك منذ البداية ؟

القسم الثالث

قَـمَـر البِـرْكَـة

صوت أنثــويّ وبطلٌ مُضَادّ

كيفِ يمكن الهروب من الحكايات ؛ من رؤى الليل ولغو النهار؟
"أنت مدعوٌّ لتكسبك الرؤيا ..." قال لي العينوس. فهل تنقذني الرؤيا من الحكايات، وتورّطني في حكاية جديدة، أعيشها ولا أكرّرها؟ "كلاّ! أنت مدعوّ إلى تكرار الحكايات" ردّ صوت في داخلي. إذاً من الأفضل أن أبقى قرب أميّ، قرب أخي الذي لا يراه غيري، وقرب سكّتي الصدئة.
ـــــ الفشل يكمِن دائما في مركز الدائرة؛ هذا قدرك!
ـــــ ومن أنت لتقول هذا ؟
ـــــ ها ها ... أتغادر المكان ولم تبدأ بالتعرّف بعد ؟
ـــــ التعرّف ؟
ـــــ عليك ترك النقطة باتجاه قطبها. وهناك تهبك الرؤيا ما تمزّق به شِراك الحواس...
ـــــ إذا كنتُ مدعوًّا للرؤية فعليَّ أن أراك كما كنتُ أرى أخي.
ـــــ في قطب آخر تراني، عندما يتعادل الجبذ والنبذ بين المركز الأوّل والنقطة الجديدة ... ترحّل تجدْني.
ـــــ فقدت أخي وسكنني قزمٌ !
ـــــ الآن تقود خطاك الشمس !

توغلت في أراضٍ خضراء. رطوبة الزَّرْع تبلّل حذائي ثم تــمتدّ من أسفل سراويلي إلى ركبتيَّ.
ـــــ إلى أين ؟
ـــــ إلى قدَرٍ أختارهِ قبل أن يختارني.
ـــــ أنت قادمٌ إليَّ إذا !
ـــــ إليك ؟
ـــــ إلى قدر يختارك ونهاية تنتظر مَنْ يجعلها كذلك.
ـــــ تعني أنني ذاهب إلى موتي ؟
ـــــ بل إلى موتنا نحن. أما أنت فتبلغ نهاية القرن وتكمل العذاب بالانجاب !

تغيّرتْ ملامح التربة. أين مظاهر الخصب والخضرة لمن يصعد قُدماً باتّجاه عالِيَةِ النهر ؟
مع ذلك يسكنني فرحٌ غامض، رهبة أشياء شفيفة تنطلق من داخلي، فتوسع لي الطريق التي بدأ يجفّ زرعها ويخفّ ماؤها.
برَكُ ماء صغيرة هنا وهناك. ضفادع تتزاحم على فرص أخيرة من أجل الحياة.
أحسستُ أنني خسرت خسارات صغيرة لهربي من حكايات تسكنني. لكن، لمن

أرويها ؟ ألم يعد أبي، في أيّامه الأخيرة، يشبه تلك البركة المائية الصغيرة التي يتحلّق حول قطراتها الشحيحة عددٌ محدود من يَرَقات لا تدرك يأسها وتتناقص كل يوم ؟ محاولات وجود مهدّدة في أمكنة ممتلئة بعناصرَ أخرى : حصباء، جنادب، سحليات وفراشات.
يتغيّر المكان حولي فأتغيّر. لم أعد أكترث لجفافه بمقدار انتباهي إلى أدقّ التحوّلات التي تنتابني وتجعلني أكثر جرأة على مواصلة الطريق.
ـــــ أنت تمشي نحو الماضي !
ـــــ ومن أنت حتّى تحدّثني ؟
ـــــ أنا المكان الذي تسعى إليه.
ـــــ لكنّني أسعى إلى المستقبل.
ـــــ لقد اخترت دخوله من ماضيه.
ـــــ أنا لم أختر شيئاً، هناك من يناديني.
ـــــ لكنهم ماتوا !
ـــــ ماتوا ؟
ـــــ ماتوا وهم أحياء ...
ـــــ إذاً، ماذا أفعل ؟
ـــــ تابعْ طريقك لتتعرّف إلى ما ظلّ حيّاً فيهم.
ـــــ أيموت المرء نصف ميتة ؟
ـــــ وماذا تفعل أنتَ، الآن، غير التّورط في دروب موتك ؟
ـــــ ظنّي صحيح إذاً ! أنا ذاهب إلى موتي !
ـــــ أنت ذاهب إلى موتنا نحن.

تَابَعتُ طريقي بين شعاب تتكشّف على جفاف متدرّج. لاشكّ أنني أخطأت الاتّجاه، وإلا لماذا ينقطع الماء فجأة ؟ وراءَ أيّة تلّة أضعت تعرّجات النهر ؟
قصدت تينة بريّة لأستلقي تحت ظلّها.
لم أكد أغفو حتى انفجر في حلمي كائنٌ ضوئيّ : لاح لي العينوس مرّة أخرى. قلت له : "أنقذني ... أنا ضعت."
طأطأ رأسه وحدّق فيَّ مليّاً بمحجر فارغ :
ـــــ أنت لم تضعْ يا جابر، وإنّما تواصل طريقك بعيداً عن مركز الدّائرة...
ـــــ لست أجد دليلاً !
ـــــ الشمس دليلك.
ـــــ لكنها تعمّ الاتجاهات جميعها، فأيّ اتّجاه أختار ؟
ـــــ أحدّثك عن شمس أخرى تدفئ القلب !
ـــــ شمس القراميد ؟
ـــــ يكفي أن تريدها ولا تتخاذل حتّى تحمي خطاك.

أفقتُ مرتبكاً بين شعورين : أنْ أرى العينوس ! أنْ أرى شمس القراميد ! لكنني لم أجدْ أحداً منهما.
ليت العينوس لم ينقذني من حلمي.
عندما استيقظت رأيت عينين لامعتين تحدّقان فيَّ من وراء الأشواك اليابسة. تساءلت أضبعٌ هو أم انسان ؟

قال صوت يأتي من الشمس ويملأ رأسي بنعاس أنثوي :
ـــــ هذ قزم، واضح أنه قزم.
ـــــ وأنت ؟ هل أنت شمس القراميد ؟
ـــــ عندما يرى المرء قزماً عليه أن يقول إنه قزم. هذا قزم.
وافقتها الرأي تماماً :
ـــــ نعم، هذا قزم.
ـــــ لا تجعلني في حاجة إلى أن أوضّح لك مثل هذه الأشياء في المستقبل. دوري أكبر من هذا !
اختفى الصوت وأنا لا أزال تحت التّينة البرية متحسّباً لعيني القزم. لكنّه لم يظهر بين الأشواك والشّجيرات الواطئة. لم أجرؤ على المشي حتى وإنْ كان الاتجاه يختارني والصوت يدلّني. تقدّمت بضع خطوات ثم جلست على صخرة بين الأعشاب اليابسة منتبها إلى احتمال أية حركة مريبة، تحتها، أو حولها.
حاولت مدّ يدي لقطع بعض العساليج نصف اليابسة. فوجئت بوجود حقائبٍ صغيرة تتوزّع مترابطة في سلسلة نحاسية وكأنّها نقانق متتابعة، لكنْ، أكبر حجماً. لاشك أن هذا القزم ساحر، وإلاّ كيف ملأ يديّ بما لست أملك؟
أنقذني القزم من هذا التساؤل صائحاً على بعد بضعة أمتار:
ـــــ هذا جرابي !
مددت يدي لأناوله إيّاه، إذْ وجدتُ من الطبيعي أن تكون حقائب صغيرة مترابطة، مثل نقانق كبيرة الحجم، ملكاً لقزم. لعلّه نسيها بين الأشواك، أو وضعها هنا، وراء الصخرة، ثم عاد إليها. ناوَلته إيّاها لأنّني وافقت تماماً أنها ليست ملكي، وأنا لا أعلم كيف وصلت إليَّ حتى أقف حاملاً إيّاها متدليّة بين يديّ.
غير أنّ القزم أتى حركة !
ولأنه قزم كان لابدّ أن يجازف بمثل تلك الحركة.
والحركة التي تجرّأ عليها القزم، وكنت أظنّ أن كلّ قزمٍ هو طفل بشكل من الأشكال، كانت تستحق توبيخاً، أو عقوبة بسيطة لا أكثر. تناولت عصاً وركضت نحوه.
لم يهرب القزم، بل حرّك يده في الهواء، فإذا بين أصابعه عصا مثل عصاي تماماً.
تواجهنا : قرعت عصاه، كما قد يتواجه طفلان بسيفين من خشب، فقرع عصاي بدوره.
قال وهو يقفز فوق الأشواك والعساليج :
ـــــ هل جئت لتأكل الأموات من جذورهم ؟
لكن، في اللحظة ذاتها التي قرع فيها عصاي، انبثق من التقاء سيفي الخشبي بسيفه، قزمٌ ثانٍ يحمل عصا. قرع عصاي فتولّد من التقاء السيفين قزم ثالث يحمل عصا... أنا الآنَ مثل دبّ راقص.
قلت : "أكيد أن عدد الأقزام سيصل إلى سبعة فقط، كما في الحكايات." لكنّني أدور الآن وأقفز داخل دائرة أقزام تحمل عصيًّا وتقرع سيفي الخشبي، فتتوالد، من كل قرعة، أقزام أخرى مسلّحة بسيوف خشبية، وتتسع الحلقة أكثر.
ـــــ هل هذا هو مركز الدّائرة ؟ سألت.
فردّ الصوت الأنثوي الذي لم أعد أشك أنّه صوت شمس القراميد:
ـــــ في كلّ قزم خمسون قزماً وعليك أن تجد ثغرة للإفلات حتى لا تتوالد الأقزام أكثر.
ـــــ وماذا أفعل ؟ سألتها.

ـــــ لا تضربْ ... وابدأْ بتحمّل الضربات.
عندئذ ألقيت بسيفي الخشبيّ وسألتها :
ـــــ لماذا يبدو صوتك محايداً ؟
ـــــ لأنّني أراك ولا تراني... أنسيت أنني ابنة الملك الأبيض ؟
بدأت الأقزام تقرع سيوفها ولا تجد ردّاً مني فتتلاشى... ولم يبق إلاّ قزم واحد ؛ لاشك أنه القزم الأوّل، مع أنّ كل الأقزام كانت متشابهة.
اقترب القزم من كتفي ــ هكذا أحسست، والحقيقة أنه بلغ كتفي بكثير من الإدّعاء والتكلّف حتى يثبت لي أنه ذو قامةٍ تعادل قامتي. اقترب من خاصرتي وبدأ يطرق لوح كتفي بعصاه كمن يطرق باباً...
تلاشت دائرة المرح المزعج وعادت شمس القراميد تحذّرني :
ـــــ أبداً ... لا يجوز للمرء أن يستهين بقزم ... إنه بطلك المضادّ منذ اليوم ... سوف ترى منه الأعاجيب !
وما إن توارى الصوت حتّى التفتُّ في كلّ الاتّجاهات. غير أنّني لم أرَ القزم.

كنتُ أنام على هَدْهَدة آلاف الأيدي النّاعمة

في أول مناسبة عدتُ فيها إلى النوم بعد رؤيتي الحسيّة للقزم، حلمتُ أنّني أمام بئر قديمة. وكنت منحنياً عندما هجم القزم ودفعني دفعة أحسستِ معها بقوة عضلاته. بعد ذلك شعرت بأنني أدخل في غيبوبة وأتلاشى، لولا يدانِ انتشلتاني بقوّة حضورِهما، ورفعتاني بسطوع نورهما، من عتمة البئر إلى ضوء النهار.
ـــــ الشكر لك يا شمس القراميد ! قلت لها.
ـــــ مازال دورَي أكبر من مأزق في حلم مرصود ! أجابت.
ـــــ أريد أن أراك يا شمس.
ـــــ أراك تراني، قالت، لقد اقتربتَ من أرضه.
ـــــ من ؟
ـــــ العينوس.
ـــــ وهل أجده ؟
ـــــ ستبدأ بالعثور على ما يدلّ عليه.
ـــــ ألن أراه هو نفسه ؟
ـــــ سوفٍ ترى ما تريد، لأنّ الذي كانِ هو الذي سوف يكون.
تسلّقت تلّة صغيرة وانحدرت منها لاهثاً فأشرفتُ على ما يشبه قرية مهجورة: بقايا أكواخ وبيوت طينية متداعية. وكان هناك قطيع صغير من الماعز الجبليّ وبعض الطيور والحيوانات الدّاجنة.
ـــــ لا تحْصِ ممتلكاتهم بل اذهبْ إليهم !

عندما اقتربتُ من القرية مررت بعين ماءٍ في حجم غرفة. كان الماء ينبجس منها فوّاراً، بارداً. أما الوصول إليه فكان شائكاً بسببٍ الصبّار المتشابك حولها. قصدت المبنى الطيني الوحيد الذي بدا عالياً ومتماسكاً.
نبح كلبان وحاوَلا الهجوم عليّ. لكنَّ صوتاً خفيّاً أمَرَهُمَا بالهدوء، فامتثلا متمدّديْن على الأرض مع زمجرة مكتومة.
عندئذٍ فوجئت بأنني لا أستطيع الدخول إلى المبنى من أيّ موضع كان؛ لم أجد باباً واحداً، ولا شبّاكاً، أو حتى كوّة في جدار.
كنت أدور حول المبنى الطيني عندما رأيت القزم، نعم، القزم ذاته. لقد انبثق من إحدى الزوايا نافضاً غبار سراويله الحمراء الداكنة، ثم ابتعد عنّي بضع خطوات إلى الوراء وهو يضحك :
ـــــ ها ها ... من أيّ ثغرة ستدخل الآن ؟
تجاهلته وتابعت الطّواف حول المبنى فصاح القزم:
ـــــ عليك أن تجد الثغرة من أجل الدّخول.
كانت هناك دجاجة. تيقّنتُ أنّ خلاصي في خطواتها المتباطئة. أسرعتُ وراءها فرأيت ثغرة واسعة تطل على قنّ وراء الجدار. حاولت أن أطلّ من الثغرة بدوري غير أنني اصطدمت بجدار حقيقي.
ـــــ ألم ترَ أنّه باب مغلق ؟ يجب أن تجد الثغرة ! صاح القزم.
ـــــ يالك من قزم لعين، قلت له غاضباً، ماذا تفعل هنا أيضاً ؟
ـــــ يجب أن تجد الثغرة، أجاب، وحتى إذا وجدتها قد لا تكون هي الثغرة المناسبة، فتجد نفسك مرميًّا في زمن آخر.
ـــــ هراء ! قلت.
كانت هناك أصوات هامسة خلف الجدار :
ـــــ كلاّ ... انتظري اللحظة المناسبة.
ـــــ لكنّه ...
ـــــ علينا الانتظار حتّى يقترب من الباب.
ـــــ نعم، هذا أفضل !
ـــــ إذاً، اخرجي أنت، دوري حول الدّار حتى تبلغي شجرة الخرّوب.
ـــــ وإذا لم يقترب من الباب ؟
ـــــ انتظريه هناك، يجب دفعه من الوراء.
ـــــ نعم، ها أنذي ذاهبة...
أدركتُ أنه يتوجّب عليّ الابتعاد عن الجدار. لعلّ القزم لم يستمع إلى الأصوات مثلي، يحكم بعده عن الجدار.
ويبدو أنّه لاحظ ابتعادي عن الجدار فتقدّم إليه، واستند بمرفقه عليه، ثم وضع رأسه في راحة يده، وطوى إحدى قدميه سانداً ساقاً إلى ساق. وأخذ يغريني :
ـــــ الدّخول من هنا، تعال !
في تلك اللحظة لاحت صبيّة مسرعة، انقضّت على القزم ودفعته إلى الجدار في موضع الثغرة التي دخلت منها الدجاجة. صاح القزم متوعداً، لكنّه لم يكمل وعيده، لأنّه سرعان ما اختفى وتلاشت نبرات صوته في البعيد.
ـــــ لقد اختفى مع ألإعيبه ! قالت الصبيّة.
ـــــ ومَنْ أنت ؟ سألتُها.
ـــــ أنا ياقوتةَ، أجابت، هيّأتُ هذه الحيلة مع العريفة لكي نخلّصك من القزم.

ـــــ وهل تخلّصت منه إلى الأبد ؟
ـــــ لقد اتخذت الأحداث وجهة أخرى الآن. والأمر لا يخلو من خطورة إذا أُعيدَ له دوره.
ـــــ خطورة ؟ أيّة خطورة ؟
ـــــ نعم، لم يكن أمامنا خيار آخر. سوف توضّح لك العريفة ذلك...
ـــــ العريفة ؟
ـــــ نعم، إنّها صاحبة الدّار.
ـــــ والعينوس؟
ـــــ كان هنا، وأوصانا بك خيراً.
ـــــ وهل كان يعرف أنني قادم ؟
ـــــ نعم.
ـــــ ومتى قال إنه سيعود ؟
ـــــ إنّه يعود دائماً. وليس له من عمل آخر غير الذهاب والعودة، لابدّ من الانتظار حتّى اكتمال القمر، وربّما قبل ذلك.
عندما تلاشى صوت القزم نهائيا ظهر أمامنا باب حقيقي:
ـــــ لقد صارت الثغرة باباً ! قلت مستغرباً.
ـــــ إنّه الباب الحقيقي وليس الثغرة التي أوهمك بها القزم.

منَ الدّاخل لاح المبنى دائريّاً، أقرب إلى خانات السفر القديمة: غرف متجاورة في أسفله، وأخرى في الطبقة العليا لا يمكن بلوغها إلا عبر درج خارجيّ ضيق. أمّا السطح فقد كان مرتفعاً جدّاً وكأنّه يخفي طبقة مخصصة لخزن المؤونة وغيرها.
تتوسط الباحة الواسعة بئر قديمة حولها حديقة صغيرة تتحرّك فيها نباتات مفاجئة في تربة مبلولة، وأخرى داخل جرار مكسورة أو بقايا براميل صدئة تحوّلت إلى أصص حاضنة لنباتات مرحة بين قطرات الماء : حبق، نعناع، أترنج وعطرشاء.
جاءت المرأة التي أطلقت عليها ياقوتة اسم "العريفة" فسلّمت بحرارة وقالت :
ـــــ الله يهلك ولد التجّان الهارب ... هيّا تفضّل.
كانت ترتدي اللباس التقليدي؛ فوطة وبلوزة ومنديلاً قديم التطريز يغطّي شعرها. لكنها كانت حافية القدمين.
لم أصعد السلّم الطيني لأنّ العريفة قادتني إلى غرفة في الطبقة الأرضية حيث تبدو الحياة أكثر حركة تحت الصمت المطبق على الحجرات المغلقة، في الطبقة العليا.
ـــــ هذه غرفتك، قالت لي، ستبقى هنا ثلاثة أيّام ولا تكلّم أحداً.
ـــــ لماذا ؟ سألتها مرتبكاً.
ـــــ لا تسأل كثيراً، أجابت، حتّى تمتلئ عيناك قليلاً !
غرفة تعبق برائحة القدم. ويؤكدها أثاثها القديم: خزانة حائطيّة، حصيرة تتخلّلها بعض الثّقب والحُرُوقَ، كليم صوفي طويل، زير فارغ، رحى حجرية، قنديل نفط، وجرّة ماء مائلة في حفرة تبلغ ثلث ارتفاعها. تناولت الحلاّب من فوق القلّة وشربت قليلا من الماء البارد. انتبهت إلى كوّة عالية على شكل نافذة، يتسرّب منها الضوء وتشرف على الخارج في موضع مرتفع لا يمكن الوصول إليه من دون كرسي أو مائدة. في السقف عوارض خشبيّة نهشها السّوس والأرَضَة.

كيف يمكن للمرء أن يمكث هنا ثلاثة أيّام بلياليها من دون أن... كلاّ هناك ستارة ! وخلفها ؟ ... كنيف داخل زاوية حادة ينحرف بها الجدار ليشكل شبه غرفة صغيرة للاغتسال وقضاء الحاجة الطارئة.
ما إن استعدت بعض الراحة حتى انتابني ندم بدأ يتسلل إلى أعماقي متوازياً مع تدفّق الصور من شريط حياتي. ندمت على ما فعلت. كان يمكن لي البقاء مع أمّي والبحث عن عمل آخر، أو الاكتفاء برواية الحكايات والسِّيَر، ومعالجة المرضى والممسوسين حتى وإن كان اقتناعي بذلك ضعيفاً، وربّما منعدماً. ألا يضعف اقتناعي الآن بهذه الرّحلة أيضا ؟
جرذ في الغرفة. أنا متأكّد من وجوده الآن. ينبغي أن أجد طريقة لتغطية فتحة المرحاض، وإلاّ ظلت الجرذان تقاسمني أكلي وشربي.
ظل الباب ينفتح في أوقات متباينة وتمتدّ يد من ورائه بصحن أو جفنة. ومع مرور الساعات تذوقت الكثير من المأكولات العريقة مثل البرزقان والرفيس والفتات، والكسكسي طبعا، وأحيانا بعض أنواع الحلويات والفطائر والمشروبات، غير أنني بقيت أشعر بجوع شبه دائم، ازدادت حدّته مع رؤية تلك اليد المتسرّبة بالطعام من وراء الباب، في لحظة بضّة، صامتة، متكتّمة.
في البداية حاولت الربط بين لحظات ظهورها، مع مدّها إلى لحظات تواريها، لأمدّد في بقائها عندي. لكنني انتبهت، في اليوم الثاني، إلى أمر محيّر: لم تكن اليد الأولى هي اليد الثانية. لقد استطعتُ تمييز أكثر من يد وزند؛ يد بيضاء، يد سمراء، يد بضّة، يد ناتئة العروق... حتى فتنتني حركة الأصابع التي غزت نهارات غرفتي فأضاءت في لياليها.
كنت أنام على هدهدة آلاف الأيدي النّاعمة.
لم أصبر على فتح الخزانة للاطلاع على ما حسبته يخصّني بوجه من الوجوه، مادامت هذه الغرفة قد أُعدّت لي. لم أجد في الخزانة شيئاً باستثناء تمثال من الجبس، مكسور الرأس واليدين، وبعض الحشرات المتداولة على المكان.
لذلك ظل الحدث الوحيد الذي يحرّك مشاعري هو حركة الأيدي المتدفّقة مع النّور إلى نصف عتمة موحشة. لماذا اليد تحديداً هي التي احتكرت بصري وأحلامي ليل نهار؟ اليد التي تستطيع دسّ السمّ كما تقدّم العسل !
لم تكن بين الأيدي التي لمحتها يد واحدة توحي بأنها يد العريفة العجوز. لكنني لم أتمكن، أيضاً، من تمييز يد ياقوتة. كان أول لقاء بها يشوبه الارتباك، من حضور القزم، فلم أدقّق في التفاصيل. كلّ ما أذكره هو وجهها الطفولي الذي لا يوحي بأن صاحبته تجاوزت مرحلة المراهقة. أذكر الآن غرّة شعرها الناعم مسترسلة حتى حاجبيها، بينما يتدلّى شعرها مضفوراً خلف ظهرها. أمّا يداها فقد تحرّكتا أمامي بحركات سريعة دافعة بالقزم إلى ثغرة الجدار. ولم يكن الوقت ليسمح آنذاك بتأمّل تفاصيل يديها الصغيرتين.
نعم ! كانت يداها صغيرتين !
فهل يمكن الجزم أن أصغر يد تقدّم لي الطعام من وراء الباب هي يد ياقوتة ؟ سوف أناديها في أول مناسبة، لكن مَن الذي سيجبرني على عدم الخروج في أيّ وقت أشاء؟ ممّن أخاف ؟ لماذا لا أحاول دفع الباب والخروج الآن، وليس بعد انقضاء الأيام الثلاثة ؟
استبدّ بي هذا الهاجس ثم تساءلت : "لماذا لا أسلِّم بأنّني في قلب حكاية ؟" ولاينبغي لمن يتحلى بأدنى درجة من الفهم أن يخرق ما توصي به الحكايات. فالإخلال

بالتوصيات، كفتح الباب السابع، أو الإلتفات إلى الجهة المحظورة في الحكاية، يؤدّي بالأحداث إلى غير وجهة. فهل يكون لي في ذلك مصيرٌ آخر غير ما أرتجي : رؤية العينوس، ورؤية شمس القراميد؟
ـــــ لكنّ هذه الحِكاية لا تكرّر الحكايات التي تعرفها، فاجأني الصوت المحايد ذاته، وحتّى إذا خرقت ما أُوصيت به لن تغيّر شيئاً في ما كان، لأنّه في كلّ الأحوال، سوف يكون !
ـــــ هل أنت شمس القراميد مرّة أخرى ؟
ـــــ تستطيعَ أن تحاول كل ما تريد ... لن تغيّر شيئاً.
ـــــ هل أفتح الباب وأخرج ؟
ـــــ حاول ...
تردّدت في التقدّم نحو الباب ثم خاطبت شمس القراميد :
ـــــ لِاشكّ أن الباب موصد من الخارج !
ـــــ لَمْ تحصل على يقين حتى تلغي الشك !
ـــــ وماذا أفعل ؟ هل أجرّب ؟
ـــــ ابدأ بعينك وسلّطها على فرجة الباب.
ـــــ هَا أنذا أفعل.
ـــــ هل ترى قفلا يكسر امتداد الضوء ؟
ـــــ صحيح، ليس هناك قفل.
ـــــ إذاً، حاول !
عندما اقتربت من الباب انفتح وحده بشكل موارب لتدخل يد وتضع صحناً من الكسكسي. خمّنت أنها يدها. صحت :
ـــــ ياقوتة !
ولم أميّز سوى وقع قدمين تركضان وراء الباب الذي انصفق بقوّة.
ـــــ سوف تأتي مصادفة أخرى مع كل محاولة للخروج، قال الصوت.
ـــــ وإذا أكثرت من محاولاتي ؟
ـــــ أكثرت من التسليم بلعبة المصادفة !
ـــــ هل معنى هذا أنني في عالم آخر ؟
ـــــ وفي أيّ عالم كنت حتى تصير إلى آخر ؟
ـــــ أعتقد أنني كنت في عالم يملؤه البشر، وليس الأشباح !
ـــــ وهل البشر إلاّ أشباح، قياساً بعمر الضوء ؟
ـــــ لا أقيس الآن بالضوء ولا بعمره. أنا في وضع لا يسمح لي إلاّ بالقياس انطلاقا من اللحظة.
ـــــ وهل من الضروري أن أوضّح لك بأنّ لحظتك هي من عمر الزّمن أيضاً ؟ ألا يمكن أن تتلاشى في لحظة واحدة كما يتلاشى غيرك في عمرٍ من اللحظات ؟
ـــــ مثل القزم ؟
ـــــ القزم لم يتلاشَ بل قفز قريباً في الزمن.
ـــــ لا أصدّق المعنى، ولا أفهم المغزى.
ـــــ انتظر انقضاء الأجل، المعنى عند العريفة، وأنتَ في نهاية اليوم الثالث.
ـــــ ولِمَ هذه الأيام الثلاثة ؟
ـــــ هيَ أيام الضيافة ...
ـــــ يا لَها من ضيافة !

ـــــ سمِّها، إنْ شئتَ، أيام المطهر.
ـــــ بمَ تعدينني بعدها ؟
ـــــ ألَمْ أعِدْكَ "بما كان" لأنّه هو الذي سوف يكون؟

قفز الجرذ بين قدميّ واختفى فجأة. حاولت البحث عنه سدى.
لم يكن من السهل فتح الباب كما خيّل إليّ. أدخلتُ أصابعي في فرجة الضوء وكأنني أزيح حافة جدار. قلت : "أتلصّص إذاً، من فرجة الباب" فكان بياضٌ شمسيّ باهر يجهر عينيّ. لكنني تمكّنت من تمييز أشباح عملاقة يحرّكها الضوء على جدار الغرفة المقابل للباب.
كان اليوم الثالث قد بدأ على تلك الحال عندما انتبهتُ، في لحظة معينة من انكسار النهار، إلى أنّ الضوء المتسرّب من الباب يعكس، بوضوح نسبيّ، أجساماً مقلوبة ومتطاولة في أعلى جدار الغرفة.
هل هي أجسام نسائية ؟
كانت الألوان تتسرّب باهتة بفعل قوة الضوء، غير أنّ للألوان الفاقعة حضوراً طاغيا في الصور المتحرّكة على الجدار.
استلقيت على الحصيرة وراقبت حركة النساء على الجدار محاولاً ربط كلِّ يد رأيتها من وراء الباب، بجسد يَعْبر هذه اللحظة متحلّلاً في الضوء، متمدّداً على الجدار، حتى انتهاء تلك اللحظات الممتازة من حركة الشمس.
وباستثناء تلك الصُّور، لم يكن يصلني من الأصوات إلاّ همسات ووشوشات يتخلّلها نباح كلب، أو قوقأة دجاجة، أو ارتطام دلو بحافة البئر. أما داخل الغرفة فقد ألفتُ صوتين مختلفين : صوت الأرَضَة وهي تنخر الخشب، وتحرّكات الجرذ المفاجئة.

ظهور القطُّوس وزيارة دار كوفا

صباح اليوم الرابع، لم يكن هناك ما يدلّ على أنّني أنهيت أيام الضيافة الثلاثة، حتّى تذكرت أنني وصلت إلى المكان عصراً. ويبدو أن هناك دقّة في حساب الساعات أيضا.
عند الظهر فُتح الباب ودخلت اليد بالطعام. تأكدّت أنها ليست يد ياقوتة. وعاد الباب ليوصد من جديد. انتهيت من تناول وجبة "الحلالم" ووضعت الجفنة الفخارية الصغيرة فوق الجفان الأخرى، مدركاً أن لا فائدة من محاولة استبطاء اليد المتفضّلة بالأكل من خلال وَضع الأواني الفارغة في متناولها، أمام شق الباب. كانت اليد تظهر فجأة وتنسحب بأسرع من ظهورها. وبدأت أفقد الشعور بالزّمن لولا توقيت أيامي الثلاثة بتدرّجات الضوء وزيارات الأيدي.
فجأة انفتح الباب.
رأيت العريفة جالسة على مقعد عتيق تحت الجدار المقابل، وياقوتة واقفة بجانبها.
كان يخيّم عليهما الصّمت والانتظار، اقتربت منهما قائلاً:

ـــــ لم أفهم شيئاً ممّا يحدث !
اكتفت العريفة بتحريك رأسها وابتسمت ياقوتة ابتسامة مكتومة. وبإشارة خفية من العريفة انطلقت الصبيّة نحو إحدى الحجرات ثم عادت بأكواب الشاي.
ـــــ متى يأتي العينوس ؟ سألتها، وأين شمس القراميدِ ؟
ـــــ أمّا شمس القراميد فلا مكان لها إذا اختارت مكاناً، أجابت العريفة.
ـــــ وهل هي التي كانت تكلِّمني بذلك الصوت المحايد ؟
ـــــ لا يكون صوتها محايداً إذا ارتأت أن تكون من عناصر المكان.
ثمّ ابتسمت العريفة وعكست أساريرها شعوراً بالارتياح قبل أن تضيف:
ـــــ لقد كلَّمَتْكَ إذاً.
ـــــ نعم، لكنني لم أرَهَا.
ـــــ ليس من السهل رؤيتها بعيداً عن تجلّياتها، أوضحت العريفة.
ـــــ والعينوس ؟
ـــــ سوف يأتي في وقت مقدّر، لا تقلق !
ـــــ هناك الكثير من الجرذان في هذا المكان، قلت لها معبّرا عن اشمئزازي.
ـــــ لا تكترث لها، قالت، تصرّف وكأنّك لا تراها ...
حاولت التلصّص والانتباه إلى الزوايا وعتمات الغرف، علّني أرى شخصاً آخر، امرأة أخرى. كان المكان مغلفاً بصمت لا يخترقه سوى صرير بعض الحشرات وأصوات متباعدة لحيوانات أهلية وطيور.
آثار مياه سُحبت منذ قليل من أعماق البئر التي تتوسط باحة الدار.
ـــــ ياقوتة ! نادى صوت من الخارج.
ـــــ أسرعي، جاء القطوس، قالت العريفة تستحثّ الصبيّة.
فتحت ياقوتة الباب فدخل رجل قصير، ممتلئ الجسم، غائر العينين وراء حاجبين كثيفين، مفلطح الأنف. كان محمّلاً بسلال وأكياس.
ـــــ ماذا اشتريت لي؟ سألته ياقوتة بإلحاح.
ـــــ انتظري قليلا، أجاب.
عاد إلى الباب، وأدخل بقية الأكياس، ثم اقترب من ياقوتة، وأخرج من جيبه قرطين من ذهب مزيّف. تناولتهما ياقوتة فرحة وركضت إلى الغرفة التي أُعدَّ فيها الشاي.
التفت الرجل نحوي مرحّبا من دون حماسة ظاهرة:
ـــــ أنت جابر ؟
ـــــ نعم.
ـــــ سأذهب لتفقّد الحيوانات، ألا تأتي معِي ؟
ـــــ دَعْهُ، قالت العريفة، لم يزُرْ دار كوفا بعد !
خرج الرجل فأمسكت العريفة بيدي :
ـــــ لابدّ من إتمام هذه الزّيارة وإلاّ غضبوا عليك.
ـــــ لم أرَ أحداً غيركم ؟
ـــــ لكنّهم رأوك !
جَازَفت بالسؤال :
ـــــ وهل كلهنّ نساء ؟
همهمت بكلمات غير مفهومة، ولم تضف شيئاً.
تجاوزنا قنّ الدجاج إلى حُجْرَة أخرى متصدّعة الجدران. أخرجت العريفة مفتاحاً صدئاً وفتحت الباب بصعوبة متأتية من قِدَمِه وقلّة استعمال قفله. انبثق من الباب

صرير موجعٍ ثم انطلقت روائح قديمة من عتمة الغرفة. ولم يكن الضوء المتسرّب من الباب كافياً لإضاءة الزوايا.
حثتني العريفة على الدّخول وهي تجرّني من يدي ثانية.
كان يتوسط الغرفة مجسَّم لبيت صغير محفور في الأرض وعليه قبّة خضراء صغيرة ومغبرّة.
ـــــ احذر السقوط في الحفرة ! نبّهتني العريفة.
ـــــ أيّة حفرة ؟ سألتها.
ـــــ حفرة القرابين، هذه، أمام دار كوفا.
بعد ذلك أخذت بيدي إلى طاقات كثيرة محفورة في الجدران. وكانت تلك الطاقات تحتوي على مومياوات صغيرة مكتملة، وتشبه تلك التي رأيتها مكسورة داخل خزانة حجرتي.
في زوايا الغرفة تتكدّس آلات موسيقية معروفة مثل العود والرباب والطار، وأخرى قديمة بدأت العريفة التي لاحظت دهشتي تعدّدْ أسماءها: مندولينة، قمبري، كرنيطة، قندي، قندفة، دندفة، دوناي، قيقو... ثم تنهّدت متحسّرة :
ـــــ انتهى كلّ شيء الآن !
ـــــ ألا يوجد من يستخدمها ؟ سألتُ.
ـــــ كلاّ، لا من يسمع، ولا من يجيء! قالت متنهّدة مرّة أخرى قبل أن تضيف : حتّى أولاد الجدري الذين رأيتهم لم يعودوا يتحركون.
ـــــ والقِزم ؟ لم تخبريني إلى أين ذهب القزم.
ـــــ لا تلمْني يا بنيْ، كان ذلك من سوء حظّك.
ـــــ ماذا تعنين ؟
ـــــ لقد جئتَ في الوقت الذي أطلّ فيه القزم.
ـــــ وما الضّرر في ذلك ؟
ـــــ لقد اضطررنا إلى دفعه.
ـــــ نعم ... شاهدت كلّ ما حدث. لكنْ ماذا سيحدث بعد ذلك ؟
ـــــ لقد دفعناه أمامك.
ـــــ أعرف.
ـــــ لماذا تسأل، إذا كنتَ تعرف ؟
ـــــ لكنني أسأل، إلى أين ذهب !
ـــــ دفعناه أمامك، وماذا يوجد أمامك غير المستقبل ؟
ـــــ هل يعني ذلك أنه سيظهر في المستقبل ؟
ـــــ نعم، لكن في مستقبلك أنت... ويكون ظهوره على أبشع وجوه!
ـــــ لقد رأيته في الحلم، قبل ذلك.
ـــــ كان ذلك حلماً، أما موعدك معه فسوف يتجسّد في أحلك تجلّيات الواقع.
ـــــ لكنني لم أفهم كيف يختفي قزم في مثل هذا المكان ليظهر في زمان آخر ؟
ـــــ أنت ستنقل هذا المكان إلى زمانك الآخر، عندئذ تلتقيان !
ـــــ تقصدين في الحلم.
ـــــ أحدّثك عن المستقبل. أما الحلم فهو ماضيك في كل مكان وزمان.
ـــــ يا له من لغز يتحرّك فيه قزم !
ـــــ ليس من المستحبّ أبداً أن يتدخّل في حياة المرء قزم. فما بالك إذا كان شبقاً إزاء كلّ ما ينبض بالحياة في الحياة !

تيقّنت أنّ سُكّان الدار أكثر عدداً ممّا أرى. لا يمكن لهذه الوشوشات والتنهّدات والضربات على الجدران أن تكون كلّها متأتية من العريفة وياقوتة وحدهما. وحتّى الرجل الملقّب بـــ "القطّوس" يسكن بعيداً، في كوخ مجاور لحظيرة الماعز.
كأنّما يحتوي المبنى على طبقة إضافية تجعل السطح أعلى من ارتفاع الحجرات العلوية. فالسّقف واطئ من الدّاخل، والسطح أعلى منه بكثير هل هناك طبقة خفيّة ؟
طلبت من العريفة مائدة وكرسيّا فلبّت طلبي معتذرة عن سوء حالتهما. ولعلّني لم أستفد منهما إلا بإضافة فرقة جديدة من حشرات الأَرَضَة إلى غرفتي. أما استخدامهما فيضيف إلى تلك القزقزة صرير الخشب.
حاولت الاقتراب من ياقوتة والاختلاء بها، عملاً بالقول المأثور: "خُذْ أسرارهم من صغارهم" لكنها كانت تتحاشاني، مُدركة، مسبقا، أنني أسعى إلى مساءلتها، لذلك صارت تقدّم لي ما أطلب، أو ما تؤمَر بتقديمه، وتنسحب مسرعة، أو تكتفي بالصمت، وبتلك الابتسامة المكتومة التي تميّزها.

ماذا يفعل أمريكي في هذه المنطقة المعزولة ؟

قال المستر هَامّتْ إنه جاء من جنوب الصحراء الكبرى بعد أشهر عديدة قضاها في كانو وتومبكتو وأغاديس ومرزوق حتّى وصل إلى غدامس، ومنها إلينا.
أوقف سيارة اللاندروفر الضخمة، أسفل التلّة، وظلّ يطلق بوقها حتّى ذهب إليه القطوس مستفسرا.
كانت زيارته المفاجئة تخبّئ مفاجأة أخرى تجسّدت في دليله إلى أرض العينوس.
لم أصدّق أن القزم قد اختفى في المستقبل، ليفاجئني فيه، كما ادّعت العريفة. وها هوذا يعود بسرعة مصطحباً شخصاً غريباً.
ارتبكت العريفة من الزيارة، في البداية، ثم استعادت بعض توازنها عندما قال المستر هَامّت إنه لا يجيد العربية وبعض لهجاتها فقط بل يستطيع تكلم بعض اللغات واللهجات البربرية والافريقية المنتشرة جنوبي الصحراء الكبرى.
كان المستر هامّت يشرب كوب الشاي المكثّف نافثاً دخان غليونه بصخب واضح، عندما همست لي العريفة بأن أسأله عمّا يفعل أمريكي في هذه المنطقة المعزولة.
خلع المستر هامت طاقيته الصحراويّة ووضعها على الأرض ثم تخلص من منظار مقرّب كان معلّقاً في عنقه، ووضعه على مقربة من الطاقية. بعد ذلك التفت نحو اليمين ونحو اليسار متسائلا:
ـــــ أين سهلون ؟
توجّهت إليه بالسؤال مستغرباً هذا الإسم :
ـــــ ومَنْ يكون سهلون هذا ؟
ـــــ سهلون القزم !
ـــــ وهل أخبرك أن اسمه سهلون ؟
ـــــ نعم، أجاب المستر هامت بتلقائيّة.
حرّكت العريفة رأسها راسمة نصف دائرة في الهواء وقالت:

ـــــ ولد التجّان، يغيّر اسمه كما يريد !
ـــــ هو الذي دلّني عليكم، قال المستر هامت.
ـــــ وبمَ أخبرك ؟ سألته العريفة مرتبكة.
لم يجبَ المستر هامت، وبَدَا أنّه يريد تغيير مجرى الحديث:
ـــــ كنت، في الحقيقـــــة، أجـــــــوب بعــض البلدان، جنوبي الصحراء الكبرى، لأجمع السِّيَر والمأثورات الشعبية.
ـــــ هل أعجبتك الصحراء ؟ سألته العريفة.
ـــــ نعم، أجاب المستر هامت، فيها ينتقل المرء بسهولة بين ماضي الدنيا السحيق والقرن العشرين، فيعيش معلّقاً بين الأرض والسماء. الصحراء! الصحراء ! أين سهلون ؟ لماذا لم يلتحق بنا ؟
ـــــ سهلون ! سهلون ! ردّدت العريفة ضاربة كفّاً بكفّ.
ـــــ إنّه يشبه فأراً ميكانيكيّاً كثير الحركة ! لقد طلب منّي خاتمي وبعض المال ...
ـــــ وماذا عساه يفعل بالمال ؟ سَأَلته.
ـــــ قال إنّه يعمل على طمر الكنوز من أجل الأجيال القادمة ! سهلون هذا في منتهى الطرافة. دلّني على كلّ ما أريد في هذه البلاد، وأخبرني بأنّك أفضل من يروي السِّيَر الشعبية ويضيف إليها.
ـــــ لقد هربت منها، أجبتُ.
ـــــ كيف تهرب منها وهي تعيش فيك ؟
ـــــ لم تعد تجدي اليوم. قلت.
ـــــ تتوقف جدواها على زاوية النظر، قال المستر هامت.
ـــــ ليست السّير الشعبية هي ما ينقصني، قلت، أنا أبحث عن مستقبل واضح.
ـــــ لكنّ بحثك عن المستقبل لا ينفي الإعتزاز بما تملك.
سكت المستر هامت وعاد إلى غليونه يشعله ثم سأل :
ـــــ أين مستر عينوس ؟
ـــــ سافر، قالت العريفة، ولن يعود قريباً.
ـــــ إنّه شخص في غاية الأهميّة بالنسبة إليَّ. لقد حدّثني سهلون عن مآثره. وأنا أريد أن أراه. لا أدري لماذا رفض سهلون الإنضمام إلينا؟

أحسست بالمكان يتزعزع تحت قدميّ فجأة. وألَمَّ بي مغص في الأمعاء. هل يعود السبب في ذلك إلى كوب الشاي الثقيل ؟ بدأت صورة المستر هامت تبتعد وتغيم. أراه يتكلم من بعيد بصوت غير مسموع. ما الذي يقذف بي ويقصيني عن هذا المكان. أشعر بفراغ في داخلي. بل ثمّة شخص يخرج منّي : إنه جابر الحقيقي.
أنا، هنا الآن، أجالس المستر هامّت والعريفة بينما جابر الحقيقي يخرج منّي، يقف، يمشي، يلتفت نحوي مبتسما. يدعوني إلى أماكن أخرى، يركض فجأة. يبحث عن سهلون. يريد مرافقته. يريد أن يصيره. هل سرقني القزم مِنّي ؟
ـــــ سهلون ! سهلون ! دعني أرجوك، أنا جالس هنا، وأنت تأخذني إلى هناك ؟
صرت اثنين.
ـــــ ألم تكن اثنين قبل الآن ؟
ـــــ كلاّ، كنت أنا، لكنني كبرت عن أشيائي، عن أخي، عن مريم، لماذا لا أذهب للالتحاق بها ؟
ـــــ أنا أسبقك إليها الآن ! ها ها ها !

ـــــ لن أبقى هنا.
ـــــ بل سوف تبقى أكثر مما تظنّ ! ها ها ها !
ـــــ ما الذي يمنعني من الذهاب ؟
ـــــ أنا الذي تركتك رصيناً، مقيماً، قابلاً للاستعباد، مولعاً بالجاذبية، ها ها ها ! عليك ببركة الماء.
ـــــ تعال ! لا تتركني ! تعال يا جابر، يا أنا !

لم تكد تمرّ تلك اللحظات حتّى عدتُ إلى نفسي، أو عادتْ لي وجدت المستر هامت يخاطبني بتهذيب شديد، ويصرّ على سماع روايتي الشخصية لبعض السِّيَر المعروفة. تهيّأ أكثر من مرّة ليأتي بآلة التسجيل من سيّارته. أوحى إليّ أيضاً، بحركة من أصابعه، أنّه مستعدّ للدفع. رفضت متعللاً بغياب العينوس، وبأمعائي التي تتمزّق الآن.
ـــــ أرى أنكم تابعون لمستر عينوس جميعكم، لذا أريد أن أراه. سوف أزوركم مرّة أخرى، لكنْ متى يعود ؟
ـــــ لا يعود إلا متى يريد، أجابت العريفة.
ـــــ سأستعين بلطف صديقي سهلون، قال المستر هامت.
تناول طاقيته واعتمرها بعد أن نفض عنها الغبار... والنّمل:
ـــــ شكرا على الضيافة، أنتم أناس في منتهى الطيبة.
لكنّ قيام المستر هامّت زعزع المائدة الصغيرة بركبتيه فسقطت كؤوس الشاي الفارغة واندلق الابريق بما تبقى فيه.
اعتذر المستر هامّت كثيراً. وكاد يدخل إحدى الغرف بدلاً من التوجّه إلى باب الخروج. ثم ودّعنا متدحرجاً على السفح حتى بلغ سيّارته. وهناك لمحت القزم يطلّ من وراء السيارة، ويقفز إلى جانب المستر هامت ثم تنطلق سيّارة اللاندروفر الضخمة...
عندما عدت من توديعه مع العريفة ركضتْ ياقوتة وبين يديها المنظار الذي نسيه المستر هامت. تناولته العريفة وتفحّصته ثم وضعته أمام عينيها. ظلّت ياقوتة ممدودة اليدين، مشرئبة العنق نحو العريفة التي أعادت إليها المنظار.
عندئذ سقطت على الأرض.

أيقظتني صعقة الماء البارد.
كان الظلام مخيّماً حولي والماء مثل الثلج.
سمعت صوت العريفة في الظلام :
ـــــ لا تخفْ ! هذه بركة الصبّار المباركة. إنّها تطفيء الحمّى وتعيد الشباب، مع أنك لم تخسر شيئاً من شبابك بعد. مكتوب أنها بركة مباركة لاستعادة شباب الرّوح. أرى أن روحك تكبر وتغادرك على عجل!
سكتت العريفة قليلا، وأنا أرتجف من البرد، ثم تابعت :
ـــــ سوف ترى كيف تستعيد عافيتك قبل مجيء العينوس. هذه البركة باردة دائماً رغم استحمام الشمس فيها...
ـــــ الشمس ؟ أين هي الآن ؟ هل تسبح فيها شمس القراميد ؟
ـــــ وما المانع إذا عنّ لها ذلك ؟ هيّا! لقد تخلّصت من حمّى الرّوح إلى الأبد !
ـــــ إلى الأبد ؟

ـــــ هذا ما أتمنّاه لك !

أحسست بعودة ما لشبابِ الروح، كما قالت العريفة في تلك الليلة. لكنْ، لماذا هذه المشاعر المتناقضة : كلٍ ما حولي يمعن في الشيخوخة والهرم بينما روحي تمتلئ بمجهول لا أجد له اسماً، غير أنه يجعلني أرى ما حولي متماوتاً إلى حدّ الوحشة ؟

امرأة كانت تغــتسل فـــي البركة

الوحشة، نعم !

تأكّدت أنّ لها عيوناً ترصدنا وتُعلي حولنا زوايا وأضلاعاً وهمية في المكان.

بَدَأْت أتعايش مع الأصوات المخنوقة والنظرات الهامسة حتى لم أعد أدرك إنْ كان مصدرها يأتي من المكان أم من خبايا أضلعي.

هوذا ليل الخلاء بقمره المتقد.

أسمع خرير الماء منبجساً في فورانه الصقيعيّ من نبع الصبّار. أية علاقة للبركة باكتمال القمر ؟ ولماذا يسمّونها "بركة" ، وهي بالأحرى ينبوع فوّار !

الأصوات تتهامس الآن في البركة.

تسللت من غرفتي مقتنعاً أن كلاب المكان قد أَلِفَتْني بدورها. ميّزت حركات غامضة بين فرجات الصبّار. وعندما دنوت بحذر، هدأ كل شيء. ولم يكن هناك سوى القمر متمرئيا في البركة، منكسراً في تجعّداتها. غطست يدي في مائها: لم يكن بارداً كما توقعت، كان دافئاً، منعشاً.

"جـــا ا ا ابر !" همس صوت كالأنين.

لعلّه صوت شمس القراميد يختزنه ماء القمر.

أبعدت عن ذهني هذه الصورة. وهل يحتاج حضور لامرئيّ إلى السباحة في الماء ؟

إنه ظلّي يلتحق بي يائساً من حدوث معجزة.

عدت إلى الغرفة مدركاً أنّ حضورهم يتحرّك في داخلي لولا هذا المبنى المتداعي والعريفة التي تشخر في ليل وحشتي.

حاولت الصعود فوق المائدة لكنها بدأت تتمايل تحت ثقلي واشتدّ صرير الخشب مع أنني مددت عليها ساقاً واحدة. يمكن للمرء أن يخلع باب الخزانة الحائطية. يفصله عن محوره على الرغم من صدأ الماضي، ثم يسند باب الخزانة إلى الجدار، ويستعين بالكرسي كي يقف على حافة الباب المسنود إلى الجدار تحت الكوة تماماً. يجد الحافة دقيقة. يحاول من جديد. وأخيراً يطلّ من الكوّة، ليرى بعناء، ما رآه منذ قليل بكلّ يسر: بركة الصبار مغمورة بضوء القمر.

لكنْ ؟ هل هي أجساد بشرية عارية، تلك التي تتحرك في الماء ؟

تظهر وتختفي بين فرجات الصبّار.

لعلّه الوجود الهامس الذي أبحث عنه تحت شمس النهار فإذا هو يقتبس حضوره منها ليتجلّى مع ظهور القمر ؟

أستطيع أن أخمّن الآن... أستطيع أن أميّز جسد المرأة من جسد الرّجل؛ انطلاقا من تكوّرات الظلال.
هل هي ظلال الصبّار متحرّكة مع انبجاس الماء ؟
امرأة، أم اثنتان ؟
أحصي سبع نساء.
أعود إلى استراحة أطرافي من التشبّث بالحافات... أتمدّد ... أنام.
أكانت وشوشات النهار في هذا المكان، هي التي تستعيد أجسادها في الليل وتسبح في بركة الصبّار ؟ أم هي شمس القراميد تختار لتجلّياتها أن تتبرّد من قيظ النهار في موكب من وصيفاتها ؟
في الصباح تأكّدت أنني لم أكن أحلم. أعدْتُ باب الخزانة إلى محوره. تذكّرت أنّ لي مهمّة هذا اليوم : سأسأل مرّة أخرى عن موعد مجيء العينوس، وأحتال للحصول على منظار المسّتر هامّت من ياقوتة.
ها هي ذي قد بكّرت كعادتها وجهّزت لي دلو الماء، والصابون والمنشفة على مقعد واطئ قرب البئر، ثم أخبرتني بأن عندنا ضيفا اليوم. ولم تزد كلمة واحدة.
ـــــ العينوس ؟ سألتها.
ـــــ كلا، هي امرأة !
انسحبت ياقوتة كاتمة ابتسامتها كما اعتادت. وفي المسافة الممتدّة بين حافتيْ المدخل لمحت في المطبخ أول امرأة جديرة بمثل هذا الاسم تتحرّك بتكاسل وهي ترمقني من الدّاخل.
عندما سألت العريفة عن تلك المرأة وسبب مجيئها، اكتفت بالقول إنّها كانت تغتسل في البركة.
كانت نظراتها غريبة. تمشي بجسد مبروم وتبدو كما لو كانت تنظر إلى أشياء أبعد من المكان الذي تتحرّك فيه. فلا تخرج من غرفة لتلتحق بأخرى إلا إذا سارت محاذية جدار المبنى، وكأنّها تطمئنّ إلى شيئين: الجدار والظل.
اقتربت منها فأجفلت قليلا ثم تابعت طريقها. راقبتها قرابة الساعة وهي تبحث عن مكان ما، أو عن شيء ضائع.
لقد بدأ المكان يتغيّر فعلا بسبب حضور المرأة. امرأة حقيقية هذه المرّة، تتوسّط فتوّة ياقوتة وهرم العريفة. لكن من أين جاءت ؟ أتراها تنتمي إلى تلك الأصوات أم أنّها واحدة من نساء ليليات كثيرات لمَحتْهنَّ البارحة يسبحن في بركة الصبّار ؟
ـــــ تقول لك العريفة إننا سنتناول الغداء معا هذا اليوم، أخبرتني ياقوتة.

أوّل ما يثير فيها شفتاها الشهوانيتان : العليا مشدودة إلى أعلى في قوس نافر باتجاه الأنف، والشفة السفلى دقيقة، منسحبة إلى الخلف، مختفية تحت زاويتي الشفة العليا. إنهما من ذلك الصنف من الشفاه التي تبدو نديّة دائما، والحقيقة أنها دائمة اللمعان لحمرة طبيعية تميّزها. وتزيد ابتسامتها المرتبكة في تهتّك الشفتين عندما تمتدّ العليا وتنجذب إلى الزّاويتين لتبرز مستوية مع أسنان ناصعة البياض.
كانت العريفة تقتعد الأرض بجانبها، حول المائدة الواطئة، ويبدو عليها الإهتمام بهذه الضيفة المفاجئة. أما أنا فقد جلست قرب ياقوتة التي لم تكن تخفي انزعاجها من الخدمات التي تقدّمها العريفة للزّائرة.
تزداد جاذبيّتها عند النظر إليها جانبيّا. لكنني في مواجهتها الآن. وقد لاحظت أن فتنة الشفتين تخف قليلا بسبب تدخل غير موفّق من عينيها المزعجتين. وهما من ذلك

النوع الجاحظ والضيّق في آن. وفوقهما حاجبان كثيفان ونتوء في القوس الجلدي تحتّ شعر الحاجب. ثمة خلل ما أوقف حدود الجاذبيّة دون الأنف العادي تقريباً، وركزها عند الشفة العليا.
هذا التراجع يتحوّل إلى اندفاع جديد عندما يتعلّق الأمر بأصابع يديها وهي تمسك بطرف الفستان إلى الجهة اليمنى من صدرها حيث يتصل القماش بالقماش ويصير فستاناً؛ أصابع مستدقّة تسري سريانا خفيفا في الهواء، أشبه بدغدغة في المنام.
ذلك الصمت المهيمن جعلني أسترق النظر وأراقب أدنى صوت قد يصدر عن انصرافي إلى الأكل.
ولم نكد ننتهي من ذلك الإحتفال الصّامت الذي جمع بين جمال اللحظة وارتباك الدخول فيها، حتى همست ياقوتة في أذني، للمرّة الأولى منذ زيارتي، وهي تتفادى نظرات العريفة :
ـــــ تلك المرأة ! إنّها لا ترى في النّهار !
لكنَّ فيها سحراً ما. وهو الذي جعلني أنفتح على المكان بأكثر من الرّيبة، كما دفع بياقوتة إلى الإقتراب مني أكثر.
ـــــ أنت لا تحبّينها ! قلت لياقوتة مداعباً.
ـــــ نعمَ، أجابت، لأنها ...
وتردّدت ياقوتة في إكمال عبارتها فتدخّلتُ :
ـــــ لأنّها لا ترى ؟
ـــــ كلاّ، إنها ترى في الليل وقد تأكّدتُ من ذلك.
ـــــ كيف ؟
ـــــ أتينا بها من البركة ليلة البارحة.
ـــــ ماذا كانت تفعل في البركة ؟
ـــــ معروف أنّها كانت تستحمّ بحضور شمس القراميد.
ـــــ وأين شمس القراميد ؟
ـــــ تغادر البركة مع الفجر وتترك المرأة متعثّرة بين الصبار.
ـــــ وهل تعرفين كيف تأتي شمس القراميد وكيف تغادر ؟
ـــــ أعرف كل شيء لكنني لا أتكلم.
ـــــ لماذا ؟
ـــــ أخاف !
ـــــ وهل تخافين منّي، أنا أيضاً ؟
ـــــ لا، لكن العينوس وحده، هو الذي يستطيع أن يحكي لك ما تريد.
ـــــ متى يأتي ؟
ـــــ إذا اكتمل البدر ولم يأت فمعنى ذلك أنه سوف يأتي مع اكتمال بدر آخر.
ـــــ هل تفهمين كلامه ؟
ـــــ نعم، أفهم كل شيء.
ـــــ أين منظار المستر هامّت ؟
ـــــ هو منظاري الآن.
ـــــ هل تعيرينني إياه ؟
ـــــ إذا أعرتني ساعة يدك.
ـــــ إنها متوقفة، ولا تعمل الآن.
ـــــ سوف أحرّكها بأصابعي.

ـــــ ألا تخافين من العريفة إذا رأتْها معك ؟
ـــــ سوف أخفيها عنها.
ـــــ أين المنظار إذاً ؟
ـــــ سآتيك به؛ لقد وقع منّي وانكسرتْ إحدى عينيه !

جسم هلاميّ داكن، وآخر أقلّ دكنة ينفصلان عن الليل

قبل تلاشي القمر في المحاق، وبعين واحدة سليمة هي ما تبقّى من منظار المستر هامت، استطعت السّهر مع البركة منتظراً مجيء السابحات ليلا. لكنني لم أتوصل إلاّ إلى رؤية أشباحي الخاصة متحرّكة بين غبش المنظار وفرجات الصبّار.
حرّكت المنظار إلى اليمين قليلا، متابعاً عتمة المنحدر الفضّي. كانت هناك كتلة هلاميّة ترفض التشكّل في عين المنظار، غير أنها ظلت تقترب وتزداد تشكلاً.
بدأ الجسم الهلاميّ الدّاكن ينفصل عن الليل. خمّنت أنه ليس جسم حيوان. كان أقرب إلى الإنتصاب، ويمسك أو يجرّ جسماً آخر أقلّ دكنة.
اقترب الجسم بمشية تشبه مشية بطة في أرض محروثة :
ـــــ العينوس ! صحت وخرجت مسرعاً.
استقبلني صامتاً. وبعد هنيهة قال :
ـــــ مازلتَ أسيرَ الانعكاسات كما عهدتك !
ـــــ لقد انتظرتَك طويلاً.
ـــــ هل وَصَلَت الثامنة ؟
ـــــ الثامنة ؟
ـــــ كان لابدّ أن تأتي مع اكتمال القمر، قال مشيراً إلى السماء: هل وصلتْ ؟
إلى الآن لم أسأله عن البنيّة التي ترافقه:
ـــــ هل تقصد المرأة التي جاءت البارحة ؟
ـــــ لقد جاءت إذاً !
ـــــ لا أدري كيف فعلتْ ذلك مع أنّ عينيها ...
ـــــ ولِمَ كانت ستأتي إذاً ؟
كدت أسأله إنْ كان ينوي معالجتها، وهل هو قادر على إعادة النّظر لمن يشكو غشاوة النهار، لكنني تراجعت خشية أن يحسب ذلك تشكيكاً في قدراته.
ـــــ لماذا سمّيتها الثامنة ؟ سألته متردّدا أيضا.
ـــــ لا لشيء إلا لكونها الثامنة.
ـــــ وهل توجد سبع صبايا هنا ؟
ـــــ من حقك أن تستنتج ذلك إذا كانت هي الثامنة...
كان يمسك بيد البنيّة السّمراء النّحيفة. ابتسم لها وقال :
ـــــ هذه بنت شمس القراميد الثانية أتيت بها كي لا تتشرّد...

واسترسل بعد ذلك يقول إنهما اضطرّا إلى النزول في محطة "الدايخة" فمشى بها مسافة عشرة أميال، يحدّثها ويملأ رأسها بحكاياته التي لا تنتهي. وقال إنه سيغادر مرّة أخرى إلى العاصمة كي يأتي بالقوارير. لكنه ظل يتباطأ ولا يغادر الخان، حتى إذا سأله سائل، أجابه : "غداً سأعود إلى العاصمة لأجلب القوارير".
والمرّة الوحيدة التي تحدّثت فيها بنت شمس القراميد الثانية عن سرّ تلك القوارير، قالت: "لقد عاد، لكنه وجد كوخه النهريّ قد تحوّل إلى مأوى للخردوات والسيارات القديمة".
صار ينتقل بين القرى ويلوح في أقل الأماكن، والأوقات، توقّعاً. أما الأماكن التي اعتاد ارتيادها أكثر فهي النهر والمقبرة. فكلاهما يمثل عودة ما، بالنسبة إليه. لكنها عودة تخونه دائما، فيعوّضها بعودة مرتقبة إلى العاصمة وكأنه بذلك يمهّد لهذا الغياب أو ذاك.
مازال يتحرّك وعيناه غائمتان، وذهنه غائب، وكأنّ الناس أشباح تتحرك أمامه.
استوقفني حديثه عن العاصمة مع أنّه حديث يشوبه الغموض والتناقض:
ـــــ تراقبني عيون ماكرة وآلات خفيّة، قال.
ـــــ هنا أم في العاصمة ؟ سألته.
استدرك قائلاً :
ـــــ لا وجود لعاصمة واحدة في رأسي.
ـــــ لكنك قلت إنك كنت هناك ...
ـــــ لا هنا، ولا هناك.
ـــــ أين كنت إذاً ؟
ـــــ كنت بقربك كي تبحث عنّي!
ها هو ذا يعود إلى طريقته في الترميز، أم هو مجرّد تلاعب بالكلمات؟ عدتُ إلى سؤاله عن العاصمة، وهل يحلو العيش فيها، وهل ترفرف فيها فرحة الحياة كما يقال لنا... فأجاب :
ـــــ هناك، يبحثون عن شخص لا يحمل هوية مثلي.
ـــــ ولمَ يبحثون عنك ؟
ـــــ كَيْ أتلقى العالم في الليل والنهار بينما هم يحلمون لي.
قلت مردّداً أول كلمة خطرت ببالي ويستدعيها الحلم:
ـــــ لكنْ، التأويل، يبقى لك التأويل...
رفع ذراعه باتجاههم (هناك في العاصمة !) وقال :
ـــــ هم أيضاً يسعون إلى التأويل.
ـــــ حتى أجدادنا كانوا يحلمون ويسعون إلى التأويل، قلت.
ـــــ لقد تقلّص العالم الآن، فهربت من العدسة.
ـــــ أية عدسة ؟
ـــــ يريدون وضع عدسة في عيني أرى بها العالم حتّى في النوم.
حيّرني استرساله على هذا النسق. قلت في نفسي "لابدّ أن كلامه صار يحتاج إلى تأويل" ثم توجّهت إليه بالكلام :
ـــــ هل تقصد عيناً عُليَا تبقى بعدك ؟
ـــــ بل هي الدنيا، قال، الدنيا التي تلتهم كلّ شيء.
ـــــ وهل تنوي العودة إلى العاصمة على الرغم من كلّ ذلك ؟

ـــــ قلت لك، لا وجود لعاصمة واحدة في رأسي، سأجرّب عودات أخرى لأتخلّص من الزرّ.
ـــــ العدسة أم الزرّ ؟
ـــــ الزرّ الذي يصبّ حياتك كلّها في عدسة، والعالم في علبة.
تململ منسحباً فالتحقت به وسألته مرّةً أخرى :
ـــــ لقد أجّلتُ سفري بسببك؛ أنا أيضاً ضقت بالمكان وأريد الذهاب إلى العاصمة...
ـــــ المكان هو الذي ضاق بك، لأنّك فقدتَه، قال.
ـــــ لم أفقِده ... تهتُ ثم عدت إليه.
ـــــ فقدتَ ما يربطك به.
ـــــ الحكايات وحلّ المعقود وتخريب بيت الظّالم ؟
ـــــ بل النظر إلى أسفل الأشياء كي ترى سموّها.
ـــــ طلبوا مني في القرية أن أحلّ محلّ والدي وأروي حكايات...
ـــــ اكتملت حياتك ولم يبق لك من حكايتها إلاّ النهاية.
ـــــ عندي حكايتك وحكاية شمس القراميد.
ـــــ انتظرْ ختام الحكاية.
ـــــ وماذا تريدني أن أفعل في انتظار ذلك ؟
ـــــ أكملْ تخيُّل حياتك حتى تصير لها نهاية.
ـــــ لكنها تأتي من دون استشارتي وتمرّ من دونها...
ـــــ عشها لتتخيّل أخرى.
ـــــ كيف أتوصّل إلى ذلك ؟
ـــــ لقد بدأتَ تفعل ...
ـــــ غضبوا في القرية لأنني أُلهي الأطفال عن الدراسة، والنساء عن الطبخ، والرجال عن الأجداد.
ـــــ إذا تركتَ أثراً، تركتَ أعداء...
ـــــ وماذا أفعل الآن ؟
ـــــ تسلّ برأس البطة في تلك المساحة، وافسح للقزم ذي المقصّ كي يدخل...
ـــــ وماذا عساه كان يريد ؟
ـــــ يريد منك أن تتبناه ليقتلك.
ـــــ أليس الذي يتبنى الآخر هو الذي يرسل به إلى الجبهة ؟
ـــــ لقد بدأ يبحث لك عن خاتمة.
ـــــ ينشر حولك حكاية تقول إنك كنتَ ذئباً اسمه أوْس. واستبدلْتَ همزة اسمك بعين أخرى. وهذا ما تردّده العجائز الآن في القرى.
آنذاك مال برقبته عليَّ فرأيت وجهه واصطدمت بعينه الفارغة. وما لبث أن غادر غرفتي هامساً :
ـــــ إذا تركتَ أثراً، تركت أعداءً.
لم أتمكن من النوم فبقيت مستيقظاً أستعيد أقواله وأحاول فكّ ما أشكل من رموزها. سمعتُ حركة قرب البئر. صوت الدلو. خرجت وساعدته في استخراج الماء.
ـــــ لِمْ تأتَ لتساعدني، قال مبتسماً.
ـــــ لا أستطيع النوم، قلت.

ـــــ قتَلَكَ البريق وكلّ ما يرسل انعكاسات؛ من الماء إلى الضوء، ومن السكة إلى المرأة. كلّ لقاء يقتل بعضك ليولد بشكل مختلف. كان ذلك جحيماً سوف تدركه غداً. كان ذلك مكاناً بعدُ لم يأت عليه الزمن، ليشعّ ببريق لا تعرفه. كان ما سوف يكون.
قلت مخفّفاً من تعاليه عليّ :
ـــــ هل تتذكر أول مرّة رأيتك في كاف الحجر ؟ سألتك إنْ كنتَ صياداً ...
تنهّد وهو يغتسل الآن :
ـــــ تلقيتك صغيراً لكي أضعك في حركة قوى متصارعة تسوقك إلى الآتي. وها أنتذا تكبر.
ـــــ وهل تريد منّي أن أشيخ معك، ويهرم العالم معنا في وقت واحد؟
ـــــ مازلت تحتاج إلى قوة تسمّرك كضربة رمح، وأخرى تجعلك تطير بجناحين؛ واحدة تثبتك في زمنك، وأخرى تعود بك إلى المنابع.
قلت :
ـــــ كبرتُ كثيراً.
أجاب :
ـــــ مازلتَ في الحركة تسكن وفي الفعل. ترى جديداً ولا تعيد الرؤية كثيراً. أمّا أنا فلم أعد أعيش بل أستعيد العيش. تلك حدودي، أتوضّأ ولا أصلّي.
ـــــ هل تخشى الموت ؟ سألته، فظلّت فظاظة سؤالي ترنّ في أذنيّ.
ـــــ إذا كنت تعتقد، حقّاً، أنني تبنّيتُك لأقتلك، فلابدّ لك أن تفكر في تبنّي غيرك لتقتله، فتعرف من أنت !
ـــــ ألهذا تتبنّى كثيراً ؟
لم يظهر عليه أنه أدرك تلميحي إلى الصّبايا، أو لعلّه تلافى ذلك ليقول:
ـــــ إذا كنت تريد المدينة، اذهب إليها. ينبغي أن تترك أثراً. وإذا عجزت، عليك أن تبشر بالفكرة : أولادك، إذا أنجَبْت، تلاميذك إذا علّمت.
ـــــ وماذا أعلمهم ؟
ـــــ علّمهم أن الفم يتوجّه إلى الذاكرة، والحكايات لم تتغيّر منذ قرون، وإنْ تجوّر الأداء، لأنّ السماع لم يختلف. المطر يسقي زرعه، والزرع ينتظر مطره. كل الذين كانوا يستمعون إلى والدك، كانوا يستمعون إلى جدودهم فلا يتوصّلون إلى رؤيتهم. كلّ حكاية ينبغي أن تأتي من صمت الآخرين، لا من بطولاتهم، ومن صمتك الدّاخلي، لا من بطولاتك. كيف تعيش زمنك، أو تدّعي ذلك، وفي داخلك أجداد وأمكنة أخرى يحدّها زمنك المرئيّ؟ الموت مسبق والحياة دعوة إلى إنجازه.
ـــــ هل أفهم منك أنّه يتوجّب عليّ الذهاب إلى العاصمة والتبحّر في العلم حتى لا أقلّد أبي ؟
ـــــ كلّنا يلعب دور القناع ... خوفاً من قناع آخر.
ـــــ عن أيّ قناع تتحدّث ؟
ـــــ ليست العين الكبرى هي التي تلتهم العين الصغرى، بل تلك التي تبدأ بالتحليق عالياً، لتدرك أنّ جبالا لا تراها هي أقل الأماكن وطئاً، ثم تنزل في أحشاء الأرض، من دون أن تكون عِينَ صقرٍ لا تعي ذاتها، أو سماءً لا تميّز انعكاساتها في عين ماء، بل هي عِينٌ خجْلى تطلّ من بين أحاسيسها لتلتهم الخارج.
ـــــ لقد حلّقت بي بعيداً، من دون أن أفهم أيَّ عين تقصد !
ـــــ عينك، قاتلة وأسيرة، آسرة وقتيلة.

ـــــ فَتَلْتَني قبل الأوان !
ـــــ لم آتِ لقتلك، هناك مَنْ يتولّى هذه المهمّة دوني. جئتُ لتهيئة موتك.

أكمل اغتساله وتوجّه إلى غرفة تُفتح لأول مرّة. وقبل أن يواريه الباب إلتفتَ وسألني من دون أن ينتظر جواباً :
ـــــ لمْ تخبرني، ماذا كنت تفعل والكلّ نيام ؟

راقبناه من غـــرف السّطـــح

مكثتُ في غرفتي. غير أن الأصوات تخلّت عن تحفّظها في هذه الساعة المتأخرة من اللّيل، معلنة عن احتفاء يكاد يكون صاخباً. كان العينوس هو الذي يتكلّم بصوت عال، تجاريه وتحيط به أصوات نائمة وأخرى متكسرة على حافة النعاس. كان يخاطب الجميع كأيّ مسافر عاد لتوّه، موزّعاً هداياه، معلقا على ما حصل ويحصل.
ـــــ جاءت ... ؟
ـــــ آ ... نعم.
ـــــ لماذا تنام الآن مادامتْ ترى في الليل ؟
ـــــ لكنّها لا تنام في النّهار .
ـــــ وماذا تفعل ؟
ـــــ تتشغل وتشتغل كثيراً.
ـــــ حنّاء، حرقوص، سواك، كحل...
ـــــ وجدتَ العندالة ؟
ـــــ انطفأتْ بين يديَّ.
ـــــ والخرز ؟
ـــــ أنا أيضاً ...
ـــــ عدس ؟
ـــــ شرابة.
ـــــ أتيت بالكثير ..
ـــــ هاتي ...
ـــــ صدريّة .
ـــــ جاء الأمريكي ...
ـــــ لا وجود للّون الأبيض ؟
ـــــ فوطة ...

ـــــ هل كان معه القزم ؟
ـــــ نعم، عاد معه.
ـــــ دفعه...
ـــــ أنا سأعود إلى النّوم.
ـــــ لابدّ أن يعود معه ...
ـــــ أين القفص ؟
ـــــ عرف السرّ.
ـــــ كسره وخرج ؟
ـــــ تنصّت وسمع.
ـــــ متى وصل ؟
ـــــ منذ أيّام ... لم أحكِ شيئاً.
ـــــ لم أجدها ...
ـــــ هذه أحلى...
ـــــ لم ير غيرنا.
ـــــ لم تجد العندالة إذاً ؟
ـــــ والقطوس ؟
ـــــ جاء مرتين أو ثلاثاً.
ـــــ وهل انفرد به ؟
ـــــ كلا.
ـــــ والبركة ؟
ـــــ مرة واحدة للضرورة ...
ـــــ لم يحاول ؟
ـــــ راقبناه من غرف السطح.
ـــــ آه !

اسمها قمر، وليست عمياء

لا أدري أكانت معرفتي السابقة بالعينوس هي التي وسّعت في تعاملي مع المكان، أم أن ذلك يعود إلى مجرّد وجود رجل آخر معي. فالمكان أنثوي منذ اللحظة الأولى؛ لحظة الاستقبال وإقصاء القزم، مروراً بتلك اللحظات التي كانت تتجلّى فيها الأيدي وتختفي لتعقبها الأصوات الهامسة والحضورات المستحمّة في ماء الفتوّة القمري.

العينوس وحده هو الذي دلّني إلى خطواتي في هذا المكان. وقبل ذلك سمّى لي أشياءه ومكوّناته المرئيّة منها والغائبة.
ـــــ أريد أن أعرف لماذا يوجد هذا المبنى منعزلا ولا شيء يدلّ أنّه نواة مزرعة أو قرية.
ـــــ لأنّه كان خَاناً، ولم يعد كذلك... ربما كنتَ أنت المسافر الأخير.
ـــــ لا أعتقد ذلك، جاء بعدي مستر هَامّتْ الأميركي !
ـــــ كان عابراً ولم يُقِمْ.
ـــــ بل أقام وشرب الشاي وكسر الكؤوس.
ـــــ ألم يكن مهذبا ومتفهما ؟
ـــــ لا أظنّ أنّه يريد الفهم فقط.
ـــــ نعم، أنتَ على حق، الفهم يدعو إلى التملّك.
ـــــ والقزم؛ لماذا يرافقه ؟
ـــــ القزم ذو حساسية تجاه الزمن، لذلك يهمّه ما هو آتٍ دائما.
ـــــ المستقبل !
ـــــ مستقبل الآخرين.
ـــــ والقطوس ؟
ـــــ بالطبع هو ليس قطّاً، وإنّما لقّب بذلك لأنّه عندما يتخمّر يتحوّل إلى قطّ غضوب وجائع إلى اللحم النيء.
ـــــ العريفة؟
ـــــ رحمونة! سادنة دار كوفا ، والمتنبّئة بأحوالهم.
ـــــ ومَنْ هم ؟
ـــــ البُدّ! أولاد الجدري!
ـــــ لا أفهم ...
ـــــ هم الوسطاء إلى الآخرين وقت احتدام البنكا.
عندما أمعنت في أسئلتي بشكل ملحّ، بدأ العينوس يتململ كأنّه يريد أن يضع نهاية للحوار. وقال شبه ساخر :
ـــــ أنت تسأل كالأطفال !
لكنّ ملاحظته لم تضع حدّا لتلهّفي، فعدت إلى مساءلته بإصرار:
ـــــ مازلتُ لم أكمل ... ما معنى بنكا ؟
ـــــ حضرة تأتي بكائنات لا مرئية.
ـــــ أما يزال لها وجود أم زالت ؟
ـــــ زالت ومازالت...
ـــــ أنت تراهم ؟
ـــــ لا .
ـــــ والثامنة، لماذا الثامنة ؟

ـــــ لا أعتقد أن قمر ستبقى الثامنة.
ـــــ اسمها قمر ؟
ـــــ نعم.
ـــــ لماذا تقول إنها لن تبقى الثامنة ؟
ـــــ هل رأيت ياقوتة ؟
ـــــ نعم.
ـــــ كنّا نظنّ أنّها الرابعة...
ـــــ لماذا ؟
ـــــ لم تستطع التخفّي.
ـــــ ومن أين جاءت ؟ من البركة ؟
ـــــ وجدها القطوس تائهة .
ـــــ يتيمة ؟
ـــــ ربّما.
ـــــ والثّامنة ؟
ـــــ آه، الثامنة! لا نعرف : أكانت تعدّ فخاخها، أم أنها التابعة.
ـــــ التابعة ؟
ـــــ أتت بها إلى حاضرها وهي فيه لا ترى.
ـــــ شمس القراميد ؟
ـــــ شاهدتْ دمارها ...
ـــــ تعذّبتْ قبل أن تصل إلى هنا ؟
ـــــ تسكن في شخصياتٍ تدمّرها أو تتجلّى فيها... هي الحكاية.
ـــــ الحكاية؟
ـــــ حَالم لا يخرج من حلمه.
ـــــ لم أَعد أفهم.
ـــــ تطلب طمأنينة الداخل محتجّاً على الخارج فلا تراه.
ـــــ قمر ليست عمياء.
ـــــ مادامت ترى في الليل !
ـــــ تنظر وكأنها تراقب سمكاً في الماء.
ـــــ مرّت بكلّ الفخاخ ...
ـــــ ساعدَتْها شمس القراميد ؟
ـــــ نعم.
ـــــ بصوت داخلي، مثلي أنا ؟
ـــــ قالت : "شمس تركتني هنا".
ـــــ وأنت تصدّقها ؟
ـــــ هذه هي البداية.

ـــــ والنهاية ؟
ـــــ إذا كان لابدّ من نهاية فهي معروفة.
ـــــ أنا لا أعرفها.
ـــــ الإستحواذ أيضاً من خصائص الموت.
ـــــ أفهم أنّها عاشت مصائب كثيرة...
ـــــ خطفتْ إلى الجهات كلّها، لكنّها ظلّت مثابرة، مرتسمة على كلّ حدقة، نبيّ امرأة، فتنة لا توجد إلاّ بسبب أنظار الآخرين لم تستطع التوحّد مع جسدها فمنحَتْه.
ـــــ آه !
ـــــ نعم !
شجّعني تجاوبه على متابعة أسئلتي من أجل استكناه خفايا وأسرار أخرى. خطر في بالي سؤال أقلّ حذراً وإنْ كنت أعرف أن العينوس قادر، دائما، على الإفلات مني من خلال كلامه الملغز، والمفتوح على التأويل.
ـــــ كيف تعيشون ؟ سألتُه.
ـــــ بالخير والشرّ.
ـــــ أرى أنّه لا ينقصكم الكثير...
ـــــ لابدّ من الوقوع في كمائن الحياة.
ـــــ كمائن الحياة ؟
ـــــ الشهوة جاءت بنا من المجهول، وهي التي تسرع بنا إليه.
ـــــ كأنّك تسعى إلى تمويه آثارك ؟
ـــــ الغش، الكمائن، البضاعة المهرّبة ... لكنْ مع سذاجة كافية للسقوط في تلك الكمائن وإرادة كافية للإفلات منها.
ـــــ وهل تتبنّى ذلك بقناعة ووضوح ؟
ـــــ بوضوح النهار وقناعة الليل.. ألم تستعنْ مرّة بخلفيّة الليل ؟
ـــــ لا أعتقد.
ـــــ هناك فارق بين الاعتقاد والفعل ... أنا رأيتك !
ـــــ متى ؟
ـــــ دائماً ...
ـــــ أستغرب ذلك !
ـــــ استغراب المعلّم من التلميذ الذي صار يعلّمه.
ـــــ لكنني هربت من كلّ تلك المعتقدات وأنوي دخول المدينة، لا أريد متابعة الكذب على الناس.
ـــــ لم تكن تكذب، كنت ميتاً في الحياة.
ـــــ والآن ؟
ـــــ تسعى إلى خلود خانني قبلك.
ـــــ لكنني لا أدّعي ذلك.

ـــــ هربتَ من الحكايات لأنك تريد سلطة.
ـــــ أيّة سلطة ؟
ـــــ أنْ تصير أنتَ الحكاية... لذلك ينبغي ألا تنسى ...
ـــــ أنسى ماذا ؟
ـــــ تعتقد أن الحكايات تتسلّل كما العلاقة الليليّة بين الحيّة والقمر، مع أنّ الليل أوسع من الحكايات.
ـــــ لكنْ، ألا تخاف من وجهك الآخر ؟
ـــــ تقصد وجوهي الأخرى.
ـــــ ربما ...
ـــــ نحن كذلك دائما، بشرط أن لا نستجيب لما يُراد منّا.
ـــــ وما الّذي يُراد منّا ؟
ـــــ أن نستجمع وجوهنا في وجه واحد، من أجل الآخرين.
ـــــ تبدو قاسياً بعض الشيء ؟
ـــــ حتّى القسوة ... إلى أفول.
ـــــ ألا يحرّكك أملٌ ما ؟
ـــــ لماذا تسأل عن الأمل ؟
ـــــ لأنّ كلّ ما حولك ...
ـــــ أدركتَ أنّ كلّ شيء يتداعى إذاً ؟
ـــــ وينتمي إلى الماضي ... يحشرج ...
ـــــ كلّ الصُّنّاع المهرة يعرفون هذا اليأس. يصنعون عوالمهم ثم يفركون أكفَّهم حسرة، لأنّ كلّ شيء يستقل عنهم ويتابع من دونهم... فيكفّون عن المحاكمة وإنْ كان ذلك يخلق منهم متلصّصين متسامين.
ـــــ إلى هذه الدرجة ؟
ـــــ الدرجة القصوى لتحقّق الصانع هي موته.
ـــــ لكنّك مازلت وافر الصحّة والإرادة !
ـــــ من أجل البحث عن العِنْدَالَة، الرّمق الأخير...

البطء مطلوب إذا لم تكن بطلاً

استيقظتْ ياقوتة على طفولتها فجأة.
أخرجت عرائسها الصغيرة المحشوة بالصّوف، من دون أن تكون لهنّ ملامح واضحة، واطمأنت إلى ملاعبتهنّ تحت الجدار الشرقي للخان القديم. بَدَا عليها أنّها

تهيّئ هدايا وأعطياتٍ جديدة للعرائس، منهمكة في نظم حبّات خرز ملوّن، في خيط يفلت من يديها مراراً.
التفتتْ نحو باب المطبخ وسألت بصوت عال :
ـــــ هل استيقظت شامة ؟
ـــــ اذهبي وأيقظيها، أجابت العريفة.
أسرعت ياقوتة إلى غرفة العريفة ثم عادت لتلتحق بعرائسها.
وعندما استيقظت شامة وقفت تفرك عينيها في مدخل غرفة العريفةٍ من دون أن تغادر مكانها. ظل رأسها مائلا قليلا. عادت إلى فرك عينيها مراراً ومكثت تتأمّل عرائس ياقوتة.
ـــــ تعاليْ ! قالت لها ياقوتة مع إشارة من أصابعها.
لكنّها تقدمت خطوة واحدة ثم عادت إلى الباب لتستند إليه عند محوره. لاحت جديلتاهَا مضفورتين ولامعتين بوسخ قديم. ولم تكفّ عن مراقبة حركات ياقوتة بعينيها الصغيرتين ورأسها المائل.
عندما نادتها ياقوتة مرّة أخرى وانهمكت تدندن كلمات غير مفهومة، تقدمت شامة بعكس اتجاه ياقوتة ودارت حول البئر ببطء. حاولت النظر إلى داخلها فتوقف أنفها عند الحافة. وعثرت بالدلو فتجمّدت في مكانها ساندة ظهرها إلى البئر.
أسرعت ياقوتة وجرّتها من يدها اليسرى، فتقدّمت شامة بجسمها الصغير المتراجع إلى الخلف، ويدها المسحوبة تسبقها إلى زاوية العرائس.
ـــــ هذه للّوشة تسمع كلامي، وهذه معريشة لا تحبّها، وهذه الثالثة سمّيتها الجحشة.
ـــــ لماذا ؟ سألَتْها شامة بتلقائية، وقد انتعش اهتمامها، ثم سكتت كأنها لا تنتظر إجابة.
ـــــ لا تسمع كلامي أبداً. لا تأكل ولا تشرب، لا تستطيع ارتداء فساتينها إلاّ بمساعدة للّوشة. آخر مرّة سبَّتني أنا أيضاً، أخبرتني معريشة بذلك.

دخل القطّوس صاخباً فركضت إليه ياقوتة تاركة شامة تنقل نظراتها بين العرائس الثلاث وباحة الخان. وعندما عادت قدّمت قطعة حلوى محشوّة باللوز إلى شامة.
أدخل القطوس علبتيْن كبيرتين إلى المطبخ قبل أن يخرج صحبة العينوس الذي ظل يوصيه ويكرّر بإلحاح :
ـــــ نعِم، قصبة طويلة، أطول قصبة تجدها، ولا تنسَ أن تفرّغ داخلها وتخلصها من العُقَد المفصلية.
ـــــ سوف تكون المهمّة أصعب إذا كانت القصبة طويلة جدًّا.
ـــــ استخدم النّار كالعادة.
ـــــ المشكلة ليست في النّار، بل في السلك المعدني، وطريقة الإمساك به رغم الْتوَائه.
عَاد الَعينوس فتعمّدتُ الخروج من غرفتي في تلك اللحظة.

ـــــ أرى أنّك لا تبكّر في النهوض، قال لي مبتسماً قبل أن يدعوني إلى تناول فطور الصباح.
في المطبخ لم تكن هناك سوى العريفة التي انتهت من سلق البيض وتسخين الحليب.
التفتت إلى العينوس وقالت بنبرة احتجاج :
ـــــ لقد عادت إلى دلالها منذ مجيئك.
ـــــ اتركيها تلعب، والثانية في حاجة إلى اللعب أيضاً، قال العينوس.
ـــــ لم أعد أدري ماذا أقول، قالت العريفة.
ـــــ ليست هناك مشكلة، دعيها، لن يطالب بها أحد.
ـــــ هي التي أخبرتك باسمها ؟
ـــــ نعم، هاتي قليلا من الملح.
لم أتدخل في الحوار. لكنني لم أتحمّل غياب قمر. قفز إلى ذهني مباشرة ترتيب الأسماء بأرقامها. هل صار ترتيب شامة "الثانية" بعد مَنْ ؟ بعد ياقوتة ؟ وأين بقيّة السبع الصبايا اللاّئي سبقن الثامنة، قمر ؟
خرجت العريفة وتناهى إليّ صوتُها في فناء الخان وهي تذكّر ياقوتة بكلمات أغنية :

جَعْ جعْ جعجونا دبْ الفارْ ميمونة
ميمونة حبيبتنا سرّاقة خميرتنا

انتهزتُ فرصة غياب العريفة وسألت العينوس:
ـــــ أين ذهبت قمر ؟
أجابني من دون أن يرفع رأسه عن الأكل :
ـــــ هل تطلب القمر في أوّل الصّبح ؟
فهمت أنه يتهرب من الإجابة كما يفعل دائماً منتقلاً إلى الرموز واللعب بالكلمات. حاولت تغيير مجرى الحديث والخوض في موضوع يمكن أن ينفتح فيه بالكلام. لكنه لم يظهر حماسة خاصة. كانت إجاباته مقتضبة. سألته عن ارتفاع السقف فأجاب :
ـــــ أتظنّ أن هناك أسراراً ؟ سقف سَميك من أجل عزل البرد والحرارة بطريقة أفضل.
ـــــ والتماثيل الصغيرة ؟
ـــــ عالم ميت.
عدت إلى تغيير مجرى الحديث مرّة أخرى :
ـــــ لقد أطلتُ البقاء وأنوي السفر إلى العاصمة.
ـــــ كلّ شيء يكون مناسباً إذا تناسب مع توقيته.
ـــــ وأنت ستمكث هنا أم تغادر قريباً ؟

ـــــ سوف نرى.
خيّم الصمت بيننا. وعندما لاحظ أنني لم أعد إلى طرح أسئلتي، بادرني هو بالسؤال :
ـــــ لماذا أعطيت ساعتك إلى ياقوتة ؟
ـــــ تعلّقتْ بها فلم أشأ رفض طلبها.
ـــــ سوف تكسرها.
ـــــ هي متوقفة منذ زمن ولا أحتاج إليها.
ـــــ ربما كنتَ على حق، فالوقت هنا لا يحتاج إلى ذلك التّجزيء الدقيق.
وبعد صمتٍ عاد ليسألني مرّة أخرى:
ـــــ أرأيتَ القطّوس ؟
ـــــ نعم.
ـــــ اطمئن، فهو لم يعد يأكل اللحم النيء !
وابتسم نافضاً يديه من بقايا الأكل.
طافت ياقوتة حول البئر حاملة عصاً مصلّبة على هيئة دمية ترتدي قطعاً قديمة من أقمشة باهتة الخضرة. وكانت شامة تطوف وراءها ساكتة.

أمّك طنقو يانْسَا طلْبتْ ربّي ع الشّتا
أمّك طنقو بِسْخَيِّبْهَا طلْبتْ ربّي لا يخيّبْهَا

توقفت شامة عن مجاراتها في اللعبة ثم طلبت منها أن تعطيها العصا وتمشي وراءها :

قَايْمَهْ يا قايمَهْ إنشا اللّه تْجينا عايمَهْ
قايْمه لِبْستْ لخْضَارْ ويا ربّي تْصُبِّ الأمْطَارْ

خرجتُ صحبة العينوس وطُفْنَا بدورنا حول مبنى الخان. حاول اقناعي بأنّ ذهابي إلى العاصمة ينطوي على مجازفات كثيرة : "لم تخلق لها" قال لي "سوف تتحوّل إلى رقم" لم أجبه فأضاف :
ـــــ وربّما تتحوّل إلى جرذ يبحث عن قُوتِه في مزابل الآخرين.
تألّمت للفكرة، لكنني استعدتُ معنوياتي :
ـــــ أستطيع مواصلة الدّراسة أو العمل بالتجارة !
توقّف لحظة ورمق الأرض بعينه الوحيدة ثم رفع رأسه قائلاً :
ـــــ أرأيت ! إنك تفكّر في شيء وتذهب إلى غيره، تختار طريقاً، وتقول : ماذا لو سلكتُ غيْرها ؟
ـــــ لابدّ من وجود فرص.
ـــــ أنت من النّوع الذي لا يعرف كيف يُوجِد الفرص لكنه يعرف كيف يفوّتها.

ـــــ ليس دائماً ...
ـــــ في المرّات القليلة التي تعتقد أنها كذلك، تكون قد أخطأتَ التقدير. لا تنسَ أنّك بدَأْتَ بالكلمة، وبالحكاية.
ـــــ وما العيب في ذلك ؟
ـــــ قد لا يكون في ذلك عيب. لكنّ المشكلة أن الكثيرين سبقوك إلى الكلمة، وأن الكثيرين أيضاً سبقوك إلى الحكاية.
ـــــ بِمَ تنصحني إذاً ؟
ـــــ لا أرى حلاً لك إلاّ في العيش كما أنتَ، أن تسترخي للجاذبيّة وتتباطأ... أقصى درجة من البطء مطلوبة في حالتك.
ـــــ لقد تباطأْتُ في كلّ شيء حتّى الآن.
ـــــ إذاً، لا تفرض نفسك على الأحداث أبداً.
ـــــ لماذا ؟
ـــــ لأنّه من الواضح أنّك لست بطلاً فاعلاً ...
ـــــ وفي هذه الحال ؟
ـــــ في هذه الحال عليك بالمطاوعة والإطّلاع.
ـــــ طاوعتُ وطالعت كثيراً.
ـــــ امكثْ متمهّلاً في الباطن كالماء.
ـــــ قلتَ لي مثل هذا الكلام سابقاً.
ـــــ لا شيء يقودك إلى بطولة ما، أنت في عالم ميت.
بعد أن احتدم الحوار لغير صالحي تجرَّأتُ وسألته عن تلك الأشياء التي لم يكن ينفي تعاطيها، فأجاب :
ـــــ كلّ شيء في وقته ممكن.
ـــــ وهل ترى أن الوقت قد حان ؟ سألتُه.
ـــــ الآن نحن أمام توقيتيْن، أجاب مبتسماً، توقيتك وتوقيتي، فكيف نجمع بينهما ؟
ـــــ عندما نسعى إلى ذلك ونحاول ! أجبتُ كي يطمئنّ إلى نضجي.
ـــــ فَلْنحاولْ إذاً، قال، لابدّ من اللّجوء إلى كلّ الوسائل لكشف البريق في وجهنا المختفي، قبل أن ينطفئ الوجهان.

سيحدّثني معلّمي عن التّساوق بين الجسم والحلم

جهّزَتْ لنا العريفة خبزاً وقديداً وصرّة من سويقة الشعير لدرء العطش. "نستطيع الحصول على الماء من ينابيعه" قال لي العينوس. وكان يحمل قصبة طويلة، سهر القطوس على "تفريغها من الداخل" كما أخبرنا مودّعا.

سألتُ العينوس عن جدوى البحث عن العندالة فأجابني بنبرة تشوبها السخرية وهو ينظر إليَّ بعينه الوحيدة من فوق كتفه :

ـــــ جدواها تبدأ قبل بلوغها.

ـــــ وبعد بلوغها ؟

ـــــ نفتح بها كنوز فاس ومكناس !

ـــــ لا تقصد كنوزاً حقيقية طبعاً !

ـــــ ما أقصده هو الكنوز الحقيقية.

ـــــ حقيقة الباطن دائماً.

ـــــ هي التي تبقى.

ـــــ لكنني رأيت أكياساً وبضاعة ... مهرّبة !

ـــــ ذلك ما رأيتَه لأنه من كنوزك اللاّزمة لتدجين الجسد.

ـــــ أيْ لإرضائه...

ـــــ لتدجين الجزء الثائر فيه، فما من غياب إلاّ وله حضوره.

ـــــ لاحظت أيضا وجود غرفة مرايا صدئة.

ـــــ لابدّ من تكرار الكائن حتّى يكتمل الصمت حوله.

ـــــ لكن الكثرة لا توحي بالصمت.

ـــــ تقود إلى الصرخة الأخرى ؛ صرخة المرايا.

حاذينا البركة فملأ العينوس مطريّته. شرب نصفها ثم قدّمها إليَّ آمراً:

ـــــ املأْها من جديد !

بَدَأْنَا الطريق نازلين السفح مع بروز الشمس قرصاً محمرًّا خلف الجبال "إلى هناك !" قال وهو يشير إلى القرص.

مرّت حدأة.

تقدّمنا بين السدر والعنّاب والصخور الرمادية المائلة إلى الزرقة وقد بقّعتها الطيور بسَلْحها.

بدأتَ الحرارة ترتفع والعرق يتسلل في ظهري.

جمجمة بقرة مرمية في السهل.

ذباب أزرق.

كنت أتأمّل الرّيف وهو يتأمّل المدينة. قال لي:
– في شهر رمضان يريدون أن تعود البلاد كما كانت!
لم أعلّقٍ على كلامه فأضاف:
– حسناً فعلت عندما جئت في دورة تناسب القطب.
– لكنني تشاءمت من القزم، قلت.
– أعمالنا في الأرض ليست أحاديّة...
– أحدّثك عن القزم...
– نحن أشباح، تبدو عندما يُنظر إليها من فوق، كأنها لا تكف عن الموت.
– وأين سنجد هذه العندالة؟
– في موضع بَرْزَخيّ بين الأرض والسماء.
– وهل هي جميلة؟
– الجميل هو ما ينفتح، وهي تنفتح. الجميل ما يُفتح وهي قابلة لذلك... سوف نعمل بكل الحواس.
– هل جئت تبحث عنها من قبل؟
– جئت مرّة، ولم أكن وحدي..
– أي كان معك شبح مثلي ذاهبٍ إلى هلاكه ؟
– كان موتى كثيرون، جثث معلّقة على الأشجار، نساء مغتصبات في الثنايا... رأيت شيخاً متحسّراً وعليه هالة نورانية. كان يبلسم الجراح وينقذ من يستطيع إنقاذهم. وحالما تركته أخبرني بما سيحصل لي بعد تركِه.
– وكان صادقاً ؟
– لاقيت بعده حكيماً يتلذّذ بأكل قطعة لحم –لحم ماذا؟ لستِ أدري ! كان يحتسي خمرته في ظلّ تينة برّيةٍ. لبيّتِ دعوته للأكل والشرب، فدلّني على مغارة العندالة. وقبل وصولي إليها تهت زمناً في بلدان وأقاليم. عرفت أنّ من أسمائها، الهلالية عند المغاربة، والكابيونا عند المصريين، ولها أسماء أخرى كثيرة في طرابلس والسودان وبلاد الشام...
– وهل سَنتيه مرة أخرى ؟
ـــ لم يعد ذلك وارداً.
– لماذا ؟ أبسبب الخبرة ؟
– لأنني لم أعد أعيش بل أستعيد العيش.
– أي أنّك تتحرّك مستنيراً بالتجربة.
– نعم. إذا لم تخنّي العلامات.
– وهل لي أن أعرف تلك العلامات ؟
ـ حدثتك عنها منذ قليل: الأول أقنعني بجدوى السلوى، والثاني بأن أصير مقطّر عنب.
ـــ شيخ الألم، وشيخ اللّذّة، فما العلامة الثالثة ؟
ـــ أنت !

ـــــ لكنني لم أعترض سبيلك آنذاك !
ـــــ كنت أسيرُ إليك !

سرت برفقة العينوس متيقّناً أنّ خطواتي، وبالتالي أسئلتي، لن تكون مجدية إذا توجّهت كثيراً إلى الخارج. لا جدوى من السؤال مادمنا سنصل إليه حتى وإن تهنا، أو وصلنا إلى غيره. ولا جدوى من السؤال أيضاً لأنّ كل إجابة لا تتطابق معه، بسبب لعبة المواراة هذه بين الظاهر والباطن.
لكنْ، من الواضح أننا لم نغادر الخان العتيق كي ننزلق على سطح الأرض أو نكتشف الجغرافيا القريبة منّا. سيحدّثني معلمي عن التساوق بين الجسم والحلم حتى أخرج من هذا وأدخل إلى ذاك. سيحدّثني معلمي عن دور المعادن والأحجار. سيقودني إلى درجات من السقوط لأتنعّم بمحاذاة القمم الزّرق. وهي تقتربٍ الآن، أو نحن نقترب منها. هناك، قال لي في ماضٍ بعيد، يصير كلّ شيء جديداً، بدءاً باللغة التي تسكن الحواس فلا تجيد التخاطب. سيعود إلى مخاطبتي في نفسي فلا أحتاج إلى سؤال بشريّ جائع. سيحدّثني عن نساء الظاهر ونساء الباطن عندما تتدفق العناصر كلها باتجاه صمتها وطراوتها حتى تصل بنا السيولة إلى مرحلة تعودٍ بنا إلى ما قبل النشأة. آنذاك لا تبقى لنا حاجة إلى الكلمة فنعود إلى حالة التيقّظ للنداء عندما لم تكن الكلمة، وكان النداء.
ـــــ هناك يتخلّص المرء من مغناطيس الأيّام، همس العينوس.

وصلنا إلى القمم الأولى ...
وتحت الجبال الزّرق حاذَيْنَا بحيرات تتداول عليها مياه الأمطار العذبة ومياه البحر المالحة.
شبكَ العينوس يديه وراء ظهره وطلب منّي أن أفسّر له الآية : "صَافَّاتٍ ويَقْبضْنَ..." أدركت أنه يقصد حركة الطيور.
كانت أقدامنا في الرمل المبلول، تحت صخب من نوع جديد: آلاف الطيور القادمة من المتوسط أو افريقيا... أسراب من البلابل والبطّ والكراكي والنحام الوردي والبلشون والطيطوى...
ـــــ كأنّنا في مجمع البحرين، قلت له منتشياً.
ـــــ عندما ينتفج الكائن يكون قد بلغ حافة حرجة ! أجاب.
ـــــ لكن ...
ـــــ فيفقد توازنه ويدخل في دوار اختلال الموازين.
ابتعدنا عن البحيرات الجنوبية وسرنا نحاذي ضفّة نهر متدفق من قمم الجبال.
كانت الأسماك ترتع في شفافية الماء وكأنّها في السماء.
شاهدت قطعاناً من ماعز الجبال الرمادية، تتعقبها ذئاب، بين مساقط مياه مزبدة، وبحَيْرات معزولة، صقيلة كأنها الفيروز.
رأيت نقوشا على الصخور وتحتها علامات لم أفهمها. وعدنا إلى التّسلّق من جديد حتى بلغنا الذروة. وهناك استرجعنا أنفاسنا. وبعد صمت طويل كلّمني العينوس:

ـــــ عندما تبلغ قمّة كهذه تشعر أنّك أُعْطيتَ الحياةَ، وصرت قادراً على رفضها.
ـــــ نحن، فعلاً، أشباح لا تكفّ عن الموت، قلت.
ابتسم معلّمي ولم يردّ حتّى وصلنا إلى صخور عالية. تأمّلها وتكلّم:
ـــــ الدنيا كلام مضغوط، غرف مغلقة.
فهمت من ملاحظته أنه يدعوني كي لا أكثر من الثرثرة. هناك "ما" يتكلّم حول الصمت، من دوننا.
ـــــ فعلاً، ليست بنا حاجة إلى كلام كثير هنا، قلت.
ـــــ الممتلئ لا يتواصل، قال.
بلغنا قبراً معزولاً، تطنّ فوقه ذبابة خضراء. تأمّله معلّمي ونظر إليّ، فأدركت في نفسي ما قاله : "بيديَّ هاتين دفنت صاحبي الأوّل !" فكلّمْته في داخلي : "هذه مواقع شمس ! " ابتسم معلّمي ولم يعد إلى التكلّم في نفسي. قلت : "الكلام يقود إلى الخيانة !" قال : "عليك أن تتخلّى إمّا عن طريقة عيشك وإمّا عن عيشك" قلت : "باركني فلا أجوع، أو أمرض، أو أكذب..." قال: "لابدّ أن تكذب، مخلوقات كثيرة لم تبلغ التشكل تحتاج إلى كذبك حتى تتجاوز هلاميّتها." نظرت إلى نظرته، لمست لمْسَه، تنفسّت أنفاسه. قال لي : "لا تفعل، وإلاّ تمرّد المقموع على القامع".
كانت الشمس قد عمّت المكان بأهوالها، فتحوّلنا إلى ذريْرات مشعّة ببقايا ظلال لاتزال تقاوم. "لا تلتفت !" قال لي في نفسي "إذا ابتسمت خرج من فمها عمود كالنور" تذكرتها وتذكرت الثعبان العظيم "لا تخف، اذهبْ في الإيمان حتّى يذهب!" ثم ظهرت لي الصّويْحبات: ميمونة، وياقوتة، وفاطمَة السحابيّة، ورقيّة بنت الأحمر، ويالوشة. كنَّ يرتدين الحرير الأحمر والياقوت، وفي أيديهنّ أطباق "خذْ هذا ..."، "خذ هذا ..."، "ثم هذا ..." فلا أجيبهنّ.

أحتاج إلى قليل من الظلّ. الشمس تزداد حدّة، منعكسة ببياض النشأة على فرحي الهش: بيضاء كامْلة القدّ، تسبل شعر دلالها فيستر ذاتها ويعرّيني. تتبختر في مشيتها وقد ألْقَت دلالها على صدرها، ومعها خدمها اللاّمعون؛ أقراط وخلاخيل وأساور، فرشْوا لها قربي. صوتها حنين ولحظها وسائد "إذا طلبت منك الزّواج لا تفعل. إذا فعَلت فسَدَ عملك ولن تتمكّن من وَصْل فرج امرأة من الآدميين بنكاحْ" لكنّها تطلب، وأنا أنهار "اشترطْ عليها ما تريد من تسخير الخلق وقبولهم... اشترطْ عليها فتح أرصاد الكنوز وإبعاد المياه عن كنوز الرّوم" لكنني أعود إلى ظلّي. لا شيء يخيفني الآن، حتى هذا الحفيف لبطن وبَريّ " ستخسر حياتك! " إنها تتغلغل في داخلي كالضّوء "عدْ إلينا عدْ! " أين أترك هذا الذي صرتُه "عدْ! ".

أفقتُ على صوت معلّمي يغمر وجهي وأطرافي بالماء :
ـــــ سبقْتَ إلى الانتفاخ! كان عليك أن تتوقّع فعل الشمس...

إذا رأيتَ شيئًا مضيئاً، أخْبرني !

بلِغتُ ذروة الإرهاق. كنت ألهث متسائلاً عن جدوى هذا التسلّق الشاق الذي لا تتوِّجهُ سوى هرولة الهبوط برفقة التراب والحصى، هذا الانتقال المستمرّ بين الوديان والسفوح والقمم. لكنّ معلمي يستحثّني بقصبته الطويلة :

ـــــ هيّا قبل أن تنقضي الأيام العشرة الأوَل من السّمائم.

ـــــ في أي يوم نحن الآن ؟

ـــــ في اليوم السادس، وعلينا أن نبلغ المكان في الموعد.

ـــــ وإذا تجاوزنا الأيام العشرة؟

ـــــ تكون قد كفّت عن الإضاءة فلا نتعرّف عليها.

تابعنا رحلة البحث بين الوديان والقمم. لم أكن أعرف أكان معلّمي يسير عشوائيا ويستكشف المعالم أم أنه يقتفي مسالك مقدّرة. كانت هناك مناطق مفاجئة لم أشهد لها مثيلا من قبل، يتناوب عليها البرد والحرارة ويغزوها الخصب والقحل "لقد اختلف المنظور" قال لي معلمي "هذه أمكنة أخرى فينا."

ـــــ لكننا نراها في الخارج.

ـــــ تتدرّج ككلّ وجود، من مرحلة العلم اليقين إلى المرحلة السريّة، مروراً بمرحلة الكذب.

صرت ألهث وراءه غير قادر على مجاراته في الحديث، فيتكلم وحده قليلا ثم يسكت، وكأنه يتعمّد طرق باب صمته بكلماته المتقطّعة:

ـــــ الكلّ واحد، لكن الواحد يحمل نقيضه مثل الحيّة.

ـــــ (...)

ـــــ عناصر الطبيعة المتناقضة تتصالح زوراً.

ـــــ (...)

ـــــ هكذا علينا أن نصالح بين المتناقضات فينا.

ـــــ (...)

ـــــ الطارئ هو الشخص الغريب الذي يأتي ويناولنا المفتاح السّحريّ.

ـــــ (...)

ـــــ لكنّه يقول إنه حصل على المفتاح من غريب آخر.

ـــــ (...)

ـــــ كل شيء تحضر فيه الشمس، حتّى هذا القديد الذي نحمله زاداً لنا.

ـــــ (...)
ـــــ لا هوادة في البحث بلا هدف...
ـــــ (...)
ـــــ حتّى التقدّم بلا انتاج قد يُتوَّج باحتمال النّجاح في تحويل ما.

أبَدَأَتْ معالم الطبيعة تتغيّر، أم أنّ تغلغل الحرارة في دماغي يجعلني أتوغّل في جغرافيّة العطش والماء المقنّن والكثبان الذهبية والريح، بينما القبائل الأولى تغادر النشأة ؟
سباخ كأنّها جليد يتقصّف. ألواح سميكة من الملح يجرّها شعب متآلف مع الرمال. قدّموا لنا تمور الصحارى ولحم الإبل. والرياح الجنوبيّة الشرقية تمنع التأكّد من الرؤية.
ـــــ إنها أرض الأنوار المثلى، قال لي، لا تنسَ ملح الأرض.
ـــــ امتداد العطش ؟
ـــــ هندسة الأنوار.
تحوّل الزمن إلى طبقات في طيّات الريح. إلى أين نحن ذاهبان؟ إلى أين يسير بي؟ تتمزّق طيّات الريح عن امرأة لوط متحجّرة تمثالاً من ملح "لا تلتفت!" تتمزّق عن جلعاد، وعن إرم ذات العماد... عاصفة تمطرنا ببلوريات الصوّان. هنا الإنسان رمل وضوء. ملح يذوب. نبتة تنبثق، تحقق دورة كاملة، تترك بذورها على الأرض وترحل.
لكننا نجونا من اختصار الإقامة على الأرض؛ بلغنا نبعاً له جفون من صخر :
ـــــ هذا النّبع، ينتهي إلى البحر.
ـــــ هل وصلنا ؟
ـــــ حتى تلوح أرض الظلال.
ـــــ ومن أين تجيئها الظلال ؟
ـــــ تركها الموتى ورحلوا.
ـــــ وبقيت الظلال ؟
ـــــ ظلالهم وظلال تجّار الملح...

على امتداد الطريق بقايا هياكل عظمية؛ هياكل حيوانات وبشر، أطفال ونساء...
ـــــ كلّهم هلكوا من أجل بلوغ النّبع الذي كنّا فيه.
ـــــ من أجل قطرة ماء ...
ـــــ لكنّنا بدأنا من موتهم، فوصَلْنَا.
ـــــ متى نصل إلى المغارة ؟
ـــــ عندما نغادر ما نراه ميتاً فينا إلى ما نحسبه حيّاً، في تجاور الموت والحياة.

لم أسأله مَن الميت ومَن الحيّ "لأنّنا نتحدّث أحيانا عنَّا كأننا ماضينا" ولم أسأله عن هدف الرحلَة أو "العندالَة". فقد تكون بحثا عن شيء فينا، كما عوّدني، غير أنه عاب عليّ مراراً اكتفائي بسطح الأشياء والانتفاج "لا تبحث عن آخر جنّية بين سُوَيْقات النرجس" قال لي. وانصرف يملأ جرابه بتراب ناعم !

مع غروب الشمس وصلنا إلى جبل صخري : كتلة هائلة مصمتة في الصخر، من دون تموّجات، أو زوايا، أو تصدّعات. أذهلتني الكتلة راسيةً على الأرض كأنها حطّت لتوّها من عل.

جلسنا مستنديْن إلى الكتلة الصخرية، فسألني :

ـــــ تريد القديد ساخنا ؟

لم أجب، فأخرج علبة كبريتٍ من جيبه. عندئذ بادرت بالذهاب للبحث عن بعض العيدان اليابسة. ولمّا جهزت الحطب والأثافي قال لي:

ـــــ هات ذلك الغصن الأخضر.

شرع يبري طرف الغصن بموساه ثم أَنْشَبَهُ في قطع القديد الجافة...

ـــــ سننتظر الليل هنا، قال.

ـــــ إذا كان لابد من ذلك...

وعندما خيّم الظلام بلا قمر، استيقظ معلمي من غفوة خفيفة، شخر أثناءها مرتين، ثم اعتدل واقفاً وتناول قصبته الطويلة.

ـــــ هيا بنا، قال.

ـــــ هل سنغادر المكان ليلاً ؟

ـــــ بل نبحث عن العندالة.

ـــــ وهل نجدها في الليل ؟

ـــــ إذا رأيت شيئاً مضيئاً أخبرني !

ـــــ سنصطاد حشرات القطرب ؟

ـــــ بل العندالة.

ـــــ وهل تضيء في الليل هي أيضاً ؟

ـــــ تضيء في الليل فقط، مثل الحباحب.

ـــــ أتراها تظلّ مضيئة أم ترسل إشارات كالحباحب ؟

ـــــ لا تضيء إلا خلال الأيام العشرة الأولى من السّمائم وبعد ذلك تنطفئ.

ـــــ ألا يمكن التعرّف عليها في النّهار ؟

ـــــ لا تُعرف في النّهار إلاّ بأوصافها. وفي هذه الحال لابدّ من البحث الدقيق عنها بين الصخور والأعشاب.

ـــــ وهي مهمة صعبة ...

ـــــ مع أنّها تتميّز دائماً بنمل صغير يتسلّقها ....

وكان لابدّ أن نقع في فخاخ كثيرة ترسلها إناث الحباحب لذكورها. وفي كلّ مرة يقول لي معلمي :
ـــــ الإناث لا ترسل إشاراتها الضوئية إلى ذكورها فقط.
ـــــ ولمَ تظلّ ترسل إشاراتها ؟
ـــــ لأنها لا تطير، الذكور وحدها هي التي تطير.
ـــــ معنى ذلك أن الإناث بلا أجنحة...
ـــــ هي بلا أجنحة، ولا تكاد تختلف عن اليَرَقَات. تراها رمادية باهتة في النّهار، وفي الليل تومض في عدة جهات من الجسم.
ـــــ ضوء بارد !
ـــــ حتى الآن لم يصنع الإنسان ضوءاً بارداً على ما أعلم !
ـــــ لست أدري.
ـــــ تضطجع الإناث المضيئة على الحجارة أو العشب فتبحث عنها الذكور المحلّقة فوقها.
ـــــ يجلبها الضوء عن بعد !
ـــــ لابدّ أنّ لها رائحة متميّزة أيضا. غير أن سرّها يكمن فِي كثرة أنواعها. حتى الأنثى لا تجيب إلاّ إذا رأت إشارة من جنسها. وعلى كل ذكرٍ أن يسعى إلى أنثى من نوعه حسب الإشارة والرّائحة، وإلاّ وقع في الفخ.
هل أراد معلّمي أن يغمز ممّا رأيت على القمم ؟ هل سمعني أهذي آنذاك ؟
أسرعت إلى تغيير وجهة تفكيري للّحاق بمعلّمي، فسألته:
ـــــ هو فخ الأنثى ؟
ـــــ تتعمّد العجائز أيضا إرسال إشارات كاذبة إلى غير نوعها حتّى تلتهم الذكر.
ـــــ عندئذ يكون للضوء وظيفة صيد ؟
ـــــ الضوء في حقيقته ليس للصّيد أو للدفاع عن النفس. فالحباحب تضيء بشكل دائم إذا لم يزعجها أحد. وإذا أمسكت بواحدة تستطيع إطفاء حالها فورا. كذلك العندالة !
ـــــ وهل يطول بنا البحث، لهذا السبب ؟
ـــــ كلا ! الحباحب بروق صغيرة مومضة، تِخطف أبصارنا وتعرقلنا قليلا. العندالة أكبر وأوضح. لكنها مثلها، إذا اقتربت منها انطفأت.
مررنا بعطور متداخلة وهو يعزل بينها بحاسة الشمّ ويسميها في عتمة الرؤية : أرقطيون، بيلسان، خزامى، مريمية، عشبة الكلب...
ـــــ ها هي ذي المغارة ! هتف معلمي.
ـــــ وهل سندخل إليها ؟
ـــــ لا نحتاج إليها إلا كصُوَّة للمكان.
توقف معلمي عن شمّ أسماء النباتات وصار يستخدم عينه الوحيدة. وفجأة :
ـــــ ها هي ذي تضيء، صاح، لا شكّ أنّها هي !

لاح سلك فوسفوريّ مُورق، يومض متوسّطاً فسحة فارغة بين النباتات.
ـــــ نذهب إليها! قلت.
ـــــ انتظرْ، إذا اقتربنا منها ذهب نورها وحِرْنَا في التأكد منها.

ـــــ ما العمل إذاً ؟
ـــــ هذه القصبة ....
ـــــ القصبة ؟
ـــــ نعم.
ـــــ هل نستطيع اقتلاعها بالقصبة ؟
ـــــ كلا، ينبغي ألا تنطفئ ! نملأ القصبة بالتراب ونهيله عليها.

وبقينا ساعات يا أمّي !
نملأ القصبة بالتراب الناعم ونصبّ عليها.
كانت القصبة مجهزة من قبل. وكان يحتفظ بتراب غير نديّ لأنه يعرف ما ينوي فعله مسبقا. قال وهو ينتهي من غمرها بالتراب الناعم:
ـــــ يجب أن نصطادِ الضوء معها !
ـــــ ليست طويلة جدّا.
ـــــ إنها تنبت على ساق واحدة وتحمل أوراقها المدوّرة التي تتميّز بنقوش كالمنخل في أطرافها. انظرْ كيف لا ينمو حولها أي نوع من النبات !
فاحت رائحة المسك واخترقت الغبار. قلت له :
ـــــ إنها عطرة !
ـــــ لها، داخل أكمامها، زهرٌ، حَبُّه كحبّ الجوهر.
ـــــ كيف يكون لون أوراقها عندما لا تضيء ؟ سألته.
ـــــ أوراقها من الخارج محمرّة، ومن الداخل مخضرّة مع مسحة بياض.
ـــــ لماذا يغزوها النّمل ؟
ـــــ لأنّه يجتمع على الدهن الذي فيها.
ـــــ والبشر ؟
ـــــ كان القدامى يعتقدون أنها تدخل في تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب.
ـــــ واليوم؟ ماذا تسمّي كلّ هذا العذاب من أجلها ؟
ـــــ إنها رغبة خالدة في التوصّل إلى تحويل ما !
ـــــ حتى إذا لم يُكلل بالنجاح ...
ـــــ نعم !

وعُدْنَا يا أمّي.
كان ذلك العذاب كلّه من أجل نبتة طولها أقلّ من شبر !

تعال نـــتـــفـــرّج عليهنّ !

أول مرة وضعتِ يدي على كتفها ابتسمتْ. صار يمكن ليَدي أن تربّت قليلا على خدّها. انتظرتُ منها مزيداً من التواطؤ، فنظرتِ إليّ مثلَ فرس تحت ظل تينة، ربّما لم يعد يزعجها الآن غير بعض الذباب.
صرتُ أتركهم جميعا والتحق بالغرفة. أطلّ فألمحهنّ يسبحن في البركة عاريات، في مقتبل العمر، بأجساد مبرومة، تكون متكوّرة أو صقيلة في المواضع التي يمكن للفرس أن تكون كذلك، مع نهود عارية وفلقات تمتصّ الرؤية.
أدْمَنْتُهنَّ فصِرْنَ من عاداتي.
مالت عينيَ البلوريّة إلى واحدة سمّيتها دجاجة الماء.
تخرج مبتلة الجسم، شعرها يتقاطر، فتتلألأ قطراتٍ الماء على زغبها (يلوح الفخذ، في عين المنظار، سارية والنهدُ تلة) علقتها مشكاة للأخريات، وجوهرة لي، تختلي بها عيني.
مرّة اكتشفتْ قمر ارتباكي.
تسلّلت إلى غرفتي ورأت المنظار، فابتسمت قائلة:
ـــــ لا أشكّ في أنّك عرفتَ القزم !
أخرجني سؤالها من حقل الرؤية المربكة فانسقْتُ أستمع إلى ما تقوله عن القزم :
ـــــ المشكلة أنه يستطيع أن يربط بين أحلامك وأحلام شخص آخر، كما ينسج قماشة كوابيس بينكما...
لم أدرك خبايا تلميحاتها لكنّني تذكرت أنني حلمت ذات يوم حلماً مائيّاً مع طفل كنت أعلّمه تحت أشجار التين. قلت لها:
ـــــ مرّة حلمت بطفل فحلم بي.
قالت وكأنّها تؤنبني بسبّابتها :
ـــــ رَبَطَ القزم بين حلميْكما، ولابدّ من وجود امرأة !
قلت :
ـــــ كنت أراها امرأة، وهو يراها بطة !
ولم تكتف قمر بحكاية القزم بل جعلتها مدخلاً لحكاية أخرى، عندما دسّت يدها خلف الوسادة، وتناولت المنظار، فوضعته أمام عينيها، وقالت :
ـــــ آه ! عندك ما ترى !
اندلعت بيننا معركة صامتة. كانت أحاسيسنا هي التي تتشابكُ. وبعد نقاش موارب، وتلميحات ساخنة وأخرى معتدلة، حجزتْ المنظار. وتفطّنْت إلى ذلك بعد خروجها.

حاولتْ قمر أن تطرد صُوَري من عيني لكنّها لم تقدّر أن تلك الصّور قد انطبعت في شبكيّةِ عيني إلى الأبد. لذلك صارت تأتي بالمنظار، مرّة تلو مرّة، لتهدّئ من إدماني. تمْسكُ به وتنظر مثلي. ويحدث أن تنساه عندي ليلة، أو تتناساه، حتى حلّ ذلك اليوم الذي لا يُفلت منه المدمن أو العذول.

ـــــ تعالِ نتفرّج عليهنّ !

أخيراً علِقتْ قمر بدجاجتي المائية. أعلمتْني أنها صارت تحبّها، أو أنّها قرَّرَتْ ذلك.

ـــــ تلك هي أنا عندما أستحمّ، وأتمرأى في ماء البركة، فأخرج مبلولة. وأنت تتملّى صدري في منظارك، وتدعوني دجاجة الماء !

جَرَتْ أحداث كثيرة بعد ذلك.

ولم تكن تلك الأحداث بسبب العندالة وحدها.

صرنا نتسلل في الليل، أنا وقمر، نركض في البركة، نلاحق أطيافاً قمريّة. فتلمع في طريقنا ثم تختفي، ونحن نجمع لحظاتها، ونحاصر وصيفاتها، بريقاً خلف بريق.

وبدا على قمر أنها من أجلي تُنْضِجُ حُبّها لشمس القراميد. ولأوّل مرّة نطقتْ بما أريد :

ـــــ سأراك معها ثم أراني.

كأنّما كانت ترصدني في مجال رؤيتها، متحرّكاً مع المشكاة، مستضيئاً بها، كي تستضيء بي.

ـــــ سأعدّ لك لقاءً معها، على أن ينتهي بسرعة !

وكان أن جاءتْ بها وصيفات النّهار إلى ليلنا ...

أنا الآن في الداخل، على فراشي. وهي مكتنزة العري أمامي. قمر خلف الباب تستحثّني بعين تخترق الثقب. إنها تنتظر كمن ينتظر دورَهُ.

من أين لها كلّ ذلك الصبر حتّى ترتاح لمناوراتي وقدرتي على تمديد لحظة الاحساس إلى حافة بعدها تنفجر الحواس، فأمسك بما يؤجّل موتي الصّارخ بين تكوّرات ملغمة بطين النشأة المسنون ؟

أمتلئ بها. أحسّ بتصدّعي إذا لم أنفجر معها.

أقترب منها، من محيط تدفّقها، أتفيّأ ظلالها بنقرات خفيفة على جذع، ثمّ على ثمار، أقترب منها فترتاب مني ريبتي.

امتلأتُ بلحظة واحدة، هي الأنضج، والأكثر سيولةِ، في ثمرة الطائر. هي المكمن الرطب الذي أعطتْهُ الشمس من نورها مكسِّرة أشعّتها عليه قربانا، مصطدمة بظلالها فيه طراوة.

بدأتُ فتهتُ في لحظة واحدة. أجّلتُ ما بعدها حتّى لا أسكت عنه إلى الأبد، حتّى يبقى فيها نزر من عدم اكتمال ينضج تحت حراستي. لكنها كانت مستجيبة، تتقلب في الإتجاهات جميعها، تتمدّد، تتكوّر، تذوب وتتجمّع. تعود فتملأ مساحتها وتحتلّ

مواضع أوسع، ثم ينقبض لحمها فيكاد ينفجر في أكثر من موضع. وتختلط نيرانها فتفقد الوعي.
قمر تستحثّني بنظراتها المتلصّصة من ثقب الباب :
ـــــ صفْها لي !
ـــــ إنهَا تراني من وراء غلالة.
ـــــ وأنتَ، أنت كيف تراها ؟
ـــــ أنف دقيق، مشدود قليلاً إلى الوجنتين.
ـــــ ألا ترى غير ذلك الأنف ؟
ـــــ حاجبان كثيفان.
ـــــ نعم.
ـــــ شفة عليا غليظة تليها الأسنان العليا مباشرة، تضغط على الشفة السفلى.
ـــــ زدني !
ـــــ الأسنان لا تنقضّ إلاّ على الجانب الداخلي من الشفة السفلى.
ـــــ زدني !
ـــــ عينها تبرز جانبيّاً في زاوية بياض صافٍ تحت الرمش.
ـــــ أكثر من ذلك ...
ـــــ تبدو قادمة خلف كتفيْها بجسد نحيل، ونهدين هشَّيْن يحتميان بعشّ الكتفين، كما تفعل أعضاء أخرى لتخفي مكامن هشة...
ـــــ أريد المزيد !
ـــــ في انسياب الظهر المنحني قليلا يبرز الآن نتوء بحجم حُقّ...
ـــــ كيف تستجيب لك ؟
ـــــ يميّزها هذا الاستعداد الدائم للاستجابة، بعكس وصيفاتها !
ـــــ هل تتمنّع دلالاً ؟
ـــــ تبدو موافقة على أية حركة مفاجئة فتنساب إليها.
ـــــ أكْملْ !
ـــــ يكفي أن أقول لها يا ... تعالي بسرعة إلى ... الموت. ومن المؤكّد أنّ جوابها لن يكون غير ...
ـــــ لحظة ... واحدة ... يا ... سيدي ... سأمشط ... شعري!
ـــــ بالضبط ! وهي لا تسترق النظر إلاّ إذا تأكدتْ أنها لم تعد في حقل العين أو يحاصرها حضور غير مرئي.
ـــــ ماذا تفعل عندئذ ؟
ـــــ تشدّ على شفتها السفلى، كما وصفتُها لكِ، وتنظر مثل حجلة!
ـــــ ألم تعد دجاجة ماء ؟
ـــــ صوتها في المفاصل، نعاس؛ رائحتها قرفة.
ـــــ لماذا لا تُكمل ؟ لماذا لم تكمل ؟ أضعتَ دوري !

ـــــ بل أخذتُ دورك ودوري !
ـــــ لماذا لم ...
انقضّتْ وصيفات الغروب على اللحظة المكتنِزة بالشمس. عُدْنَ إليها وسُقْنَها بالسّياط. قُلْنَ لي : "آنَ الأوان !" فهل قصّرت ؟
ـــــ ضعتَ وأضعتَ دوري.
ـــــ لكنني، الآن، أكتمل بنقص ما ...
ـــــ هل هو حضوري ؟

لستُ أدري. مع مرور الوقت صارت قمرٍ تحسدني على نزر يسيرٍ (كما تعتقد !) وهو كثير (كما أعتقد) حصلت عليه نقراً. هي لم تكتسبه كما اكتسبته أنا، وأنا طرقْته ولم أدخل، كما تدّعي !
لذلك صرنا نلتقي، أنا وإيّاها، لتعطيني ما تراه اكتمالاً لي، وتأخذ منّي ما تجده نقصاً فيها. فتكرّر لي دائما :
ـــــ وهكذا، حتّى إذا افترقنا، نفترق ممتلئيْن. ولكُلٍّ ما ينقصه في طَلَبِهِ للآخر ...
كان ذلك قبل أن تفاجئني ذات ليلة :
ـــــ لا أحد يستطيع التوحّد بجسده، لذلك سأكسر المنظار !
ـــــ لكنّ الآخرين يرسلون إلينا صورة جسدنا.
ـــــ وهل لنا وجود من دون وجودهم ؟ لماذا تراقب صورهم ؟
ـــــ لا أريد التنكّر لشمس القراميد حتّى وإن كانت صورة !
آنذاك مدّتْ قمر ذراعيها وطوّقت رقبتي ناقِرة بثغر دلالها:
ـــــ ألم تحسّ بدفئها في ليل جسدي ؟

درجات أخرى من القسوة سنجرِّبُها الليلة

تهيأنا للاحتفال الكبير بالعندالة.
فُتحت الحُجرات، وأُخرج ما فيها من خبايا وأسرار، قديمة وجديدة. تجاورت المومياوات الصغيرة وأنواع القناني والآلات الموسيقية، مع بقايا أنابيق وقراطيس وعقاقير، مشكوك في قدرتها على استحضار أي شيء سوى الرّيبة.
كانت العندالة الصغيرة تختفي تحت طبقات التراب الناعم، داخل زوّادة العينوس. بدت محور المكان بأناسه وأشيائه، تقرِّرُ حركاتهم وتقدّر درجات تلهّفهم قبل حلول جمعة الرغايب.
انصرفت ياقوتة وشامة إلى جمع المفاجآت الصغيرة في دار كوفا بعد أن كانتَا ممنوعتين من دخولها.

انكبّت العريفة تنفض الغبار، وتمزّق نسيج العناكب الذي علق بزوايا دار كوفا، ثمّ تنظف أولاد الجدري من صمت الغبار والسنين، في احتفاء خاص بقمر التي بَدَا حضورها في المكان ضلعاً أساسيّاً في المثلث الذي تكمله مع العندالة وبنت شمس القراميد الثانية.
أما أنا فكنت مُريداً جديداً، مجرّد تلميذ يفترض فيَّ معلّمي أن أصير معلّمه، لاَحقاً، بعد أن تخلّصت من وصايا أبي وقررت الذهاب إلى العاصمة مهما كلّفني الثمنَ.
هذا الجزء المتردّد فيَّ هو الذي جعل معلّمي ينظر إليَّ بحسرة، دافعاً بكل قواه الخفيّة نحوي حتى لا يكتمل غيابه بتجربة جديدة فاشلة.
كانت قمر تلازم المطبخ، تجهّز وصفات دقيقة تحت إشراف العريفة: شمنكة، جنقلا، روزاطة، شروبو، كعك قرن الغزال، محكوكة.
وأطلّ القطّوس يسحب وراءه تيساً أسود وحزمة من حطب. فربط التيس إلى حلقة الباب، ودخل إلى دار كوفا، ثم أخرج غليوناً طويلاً وطلب قليلاً من الكحول لينظّفه.
غاب العينوس في غرفة المرايا الصّدئة، وبقيتُ متعثّراً في حركة المكان، محاولا التظاهر بالمشاركة في نقل هذا المقعد أو تحريك تلك الخزانة، مدركاً أنني لا أعبّر إلا عن نشاز في وجودي هنا.

غربت الشمس.
خيّم ظلام عميق، زاد في تعميقه غياب القمر في المحاق.
هدأ المكان وبدا كلّ شيء جاهزاً لبدء الإحتفال.
فتح القطّوس باب دار كوفا على آخره، وبحركات سريعة ومتكرّرة من يده، دعانا إلى الدخول جميعاً.
كانت الغرفة نظيفة ومرتّبة: القبّة الصغيرة في الوسط، وعليها ستار ملوّن ومطعّم بالخرز، ومومياوات أولاد الجدري تتراقص ظلالها مع ألسنة النّار المتّقدة في حفرة القرابين الكبيرة أمام دار كوفا.
بدأت ألسنة اللّهب تخمد تاركة الحطب يتّقد في قاع الحفرة. أسرع القطّوس إلى الباحة وجلب أغصان زيتون، شرع يفردها ويضعها على امتداد فتحة الحفرة حتّى غطّاها تماماً.
وعندما فرغ من هذه المهمّة بدأ يكسر أغصاناً صغيرة ويمدّ غصناً مُورقاً لكلّ منّا.
جاءت العريفة تحمل قلائد كالسّبحات مصنوعة من نوى الزيتون وألبستْنَا إيّاها.
خرج القطّوس.
عاد بصحبة العينوس، وهما يجرّان التّيس الأسود حتّى حفرة النّار المموّهة بأغصان الزيتون.
تقدّم القطوس محاذيا الحفرة، دافعاً بالتيس المضطرب إلى وسطها.
ظلّ التّيس لا يتقدّم إلاّ إلى وراء مستحيل، بقوائم تتشبّث بالأرض، فيما القطوس يزداد ضراوة، وتنتفخ أوداجه، وهو يدفع به إلى تلك الحفرة.

تقصّفت أغصان الزيتون تحت قوائم التّيس فهوى في السّعير، صاخباً، قافزاً منه إليه.
وبدأت رائحة الشّواء والدّخان تعمّ المكان، فخرجنا من غرفة الجحيم الوثنيّ الأسود إلى الباحة.
ازْرقّ لون شامة فغسلت العريفة وجهها بماء البئر، ثمّ أمسكت بيد قمر واصطحبتها إلى غرفة نومها لتخرج منها فاتنة الزّينة، متخلّصة من الدّخان والعرق، مكتملة الأنوثة والبريق.
التحق العينوس مرّة أخرى بغرفة المرايا.
بعد لحظات دقّ على باب الغرفة من الداخل.
أسرعت العريفة وأمسكت بيد قمر ثم أدخلتها غرفة المرايا، وانسحبت.
كلّ ما استطعنا إدراكه هو الصراخ الذي تعالى من غرفة المرايا. كان ذلك صوت قمر بين همهمات العينوس.
ارتبكت العريفة بيننا، واقتربت من الباب متنصّتةً.
تناهى إلينا جميعاً صوت العينوس :
ـــــ العندالة لا تضيء !
صاحت العريفة :
ـــــ حَاوِلْ مرّة أخرى !
ـــــ قلتُ لك العندالة لا تضيء، حاولتُ مراراً...
ـــــ أرجوكَ، حاول !
وبدأت العريفة تضرب كفّاً بكفّ، وهي ترمق القطوس الذي وقف محتاراً، وما لبث أن تكلم :
ـــــ فليُخْرِجْ قمر من الغرفة !
أسرعت العريفة إلى الباب وصرخت :
ـــــ دَعْ قمر تخرج من الغرفة !
انفتح الباب...
خرجت قمر تتعثّر في خطواتها وتفرك عينيها. وبعد برهة قالت:
ـــــ إنّه يحاول المستحيل !
ـــــ ولماذا يحاول المستحيل ؟ سألتها العريفة بنبرة ساخطة.
ـــــ عندالة مكسورة الجذور، مرايا صدئة، شموع متآكلة، وكتل غائمة ترفض التشكّل...
ـــــ ولماذا لا تكون قيد التشكّل ؟ سأَلَتْها العريفة مستنكرةً.
ـــــ لم تظهر منها أيّة همهمة !
ـــــ لماذا صحتِ ؟ يقيني أنه كان يحاول تحويل أصدائها إلى أصوات.
فجأة خرج العِينوس من غرفة المرايا مرتبكاً، مطأطئ الرأس. اقتربت منه العريفة وحاولت طَمْأَنته :
ـــــ سنحاول مرّة أخرى في دار كوفا !

تدخّل القطّوس وقال :
ـــــ لابدّ أن ننتظر التّيس حتّى ينضج ...
أخرجت العريفة نبتة العندالة من غرفة المرايا. كانت مغبرّة مع ذبول ظاهر على أوراقها. دعتنا إلى دار كوفا. تناولت أوراق العندالة وبدأت تلقي بها على قبّة دار كوفا، وعلى المومياوات الصغيرة المحتجبة وراء طبقات الدخان.
ران الصمت. ولم يكن يُسمع سوى تقصّف الجمر وذوبان الشحم. كدنا نختنق بالدّخان.
ماذا كان يمكن أن يحدث ؟
سألتُ العريفة فلم تجب. وسألت القطّوس فلكزني بمرفقه.
اقتربتُ من قمر وحاولت أن أسألها همساً، فالتفتت نحوي نصف التفاتة وهمست :
ـــــ لا تكلّمني الآن !
كان من الواضح أنني أقف على أطلالِ مكانٍ مندثر، وأتحرّك مع أشباح ... لولا رائحة الشواء والدخان !
هزّ العينوس رأسه وقال :
ـــــ لا شيء يحدث، لا أحد يجيء.
ثم دعانا إلى الخروج من دخان دار كوفا.
دنوت منه فابتسم لي ابتسامة اعتذار وهمس مستبقاً سؤالي:
ـــــ لا تسألني ! إنه مجرّد عالم ميت أتحرّك فيه !
ـــــ كنتُ أحدّث نفسي بذلك قبل قليل، قلت له.
ـــــ لا تخفْ ! بقي لنا الإحتفال، والدّليل على ذلك...
ـــــ رائحة الشواء ! قلتُ مقاطعاً.
ـــــ هذا هو المظهر الملموس من كلّ ما يجري.
ـــــ لكنّه يتم بطريقة في منتهى القسوة !
ـــــ ذلك هو وجهنا الآخر...
ـــــ لماذا ؟
ـــــ بحثاً عن حميمية مفقودة ...
ـــــ أحياناً أستغرب منك التعبير عن ذلك الوجه بمثل هذه القسوة !
ـــــ ثمّة درجات أخرى من القسوة سنجرّبُها الليلة لتكتمل يقظة وجهنا الميت على حساب وجهنا الحيّ.
ـــــ يا إلهي !
ـــــ لا تخشَ شيئاً، هيّا !

وبدأ احتفالنا الحقيقي والملموس...
وُضعت الصّحون ورُتّبت الكؤوس وأُحضرت المأكولات والمشروبات. وبدأنا نغرق في لحم التيس الناضج، ونمزّقه قطعة قطعة، ومفصلاً مفصلاً، مستبعدين بقايا الجلد والأمعاء والفضلات...

وأتى الشراب.
وأتى القطوس بالغليون.
وتحرّكت الأشياء الميتة فوق واقع طلليّ جامد.
وحَدَث ما فشلت فيه الطقوس وجَادَتْ به الحواس.

المستر هَامَّتْ يضحك في كلّ مكان

وضع العينوس ياقوتة على ركبته اليمنى، وشامة على ركبته اليسرى، وبدأ يؤرجحهما كأنما يستعيد بداية قد خذلته.
جلست العريفة قرب كومة من الآلات الموسيقيّة تجرّب الطبلة ثم تتركها محاولة تضبيط أوتار المندولينا، وتعود إلى مجموعة الآلات باحثة عن القمبري.
تمايلت قمر في قميص شفاف تبرز منه حركة مفاصلها.
ـــــ لابدّ لنا من حكايات حتى تطيب السهرة. قال القطوس.
ـــــ لابدّ من طارئ... أو طارق ! قال العينوس.
ـــــ قد يأتي القزم ! قالت ياقوتة شاخصة بعينيها.
ـــــ لا حاجة بنا إلى نَكده ! ردّت عليها العريفة.
ـــــ أو المستر هامت ! أضافت ياقوتة.
ـــــ لا حاجة بنا إلى منظار آخر ! ردّ عليها العينوس وهو يناولني الغليون.

بدأتُ أحس أنني قادر على التوغّل في صمت ما أرى ضجيجَه. تخونني المعالم فأتيهُ. لي قدرة تتجاوز الألم فلا أسقط في غِبطَة الخير وحده. انتهى العقد الذي أبرَمته مع الخارج. سأقول ما لا يقال أخيراً. سأدخل أزمنة أخرى، أمكنة.
كان وجهي يحتاج إلى مرآة، وعيني إلى منظار. صرتُ أسكن الأصداء ومسالك الهواء. تغيّر زمني وغيّرني. لم أعد سكة، صرتُ محطّة. أسلم جسمي لكلّ ما يأتي من أنفاق، تتدفق منها الصّور. أحتفي بمن غابت ذكراهم. تتقدّم عيناي ملتصقتيْن بأناملي. تتقدّم أناملي فإذا لي في أطرافها عيونٌ أخرى. أنزل سلالم صاعدة. أدخل أبواباً مواربة. لم تعد هناك حكايات. صرت أنا الحكاية. أبحث عن راوٍ. أتدفّق فيرويني.

أخلع حذائي لأنّني فقدت قدميّ. أغوص. كلّ ما حولي كبير. العيون تراني. تبتلعني من الحاضرين فوقي، أمامي، ورائي. تفترسني برخاوة مائيّة. حلّ زمني. جسدي ينام. أحلّق فوقه. ماذا كانت نظرتي الأولى. لا أحتاج إلى مواجهتها. كنت متدفقاً ودخلت فيها. رأيتها تنظر إلى نظرتها لتخرج بي إلى ضوء النهار. تشعّ بي.

بين ماءٍ وهواء، بليونة تستجيب لتدفّق الماء في عضلات الهواء، تنهمر دموعها بذوراً ملائكيّة جديدة من ملاك فردوسيّ ينفض ريشه رذاذاً وليداً فاجأته الولادة. تنحني حتى تبلغ المدخل المؤدّي إليّ، بين فسحتين. ها هي ذي تقرفص الآن. حدقتاها واسعتان في انعكاس الماء والضوء. أُقبِلُ منها كائناً طالعاً من ألق الصخر وغبش الماء. هو ذا أنا. تسلني بَرْقاً من الرّعد لترتدّ معي رعداً من البرق. ترفّعني من تحت الماء متكسّرة. تمتصّ ما علق بي من الماء. تلقي بي في الهواء. يتلقاني الماء.

أغلق الغرفة من الدّاخل. هي التي تختار المكان.

تركتِ الفراش واستلقتْ على الأرض. ليتني أختار وأكفّ عن الحديث في مرآتي. تنفسّتُهَا. ليتني أنساني فلا أراني. ورقّتُهَا على الأرض. أصابعي عيون. أراني. موجة. سلوْر ماء مالح...

ــــ وأنتَ، ماذا ستفعل الآن ؟

لم أطلب. قبعتُ في الزاوية.

ــــ أنا متسوّلة قديمة، وأنتَ ؟

ناولتني كسرة خبز يابسة فلم أجد إلا أصابعها. أخذْتُها منها وعدتُ إلى زاويتي.

ــــ عجيب ! أتوافق على هذه اللّعبة ؟ تريد أن تكون متسوّلا مع متسوّلة مثلي !

الدائرة في عيني.

الدائرة في عيني.

قمر تخلع قميصها وتناديني. أرى عينيها، حلمتيها الكبيرتين. تصيح بي، كي أُبعد عنها الرجلَ، بعينيها وفخذيها. تريد أن تتنفس قليلا. خرجنا إلى الباحة. صار الكلام كثيراً. ينبغي أن ندخل تحت مائدة حتّى نسكت، أو نعود إلى الغرفة.

الدائرة في عيني.

المرأة تهتزّ.

ــــ نعود إلى الغرفة، أليس هذا أفضل ؟

ــــ غرفة مَنْ ؟

ــــ غرفتكَ.

ــــ ليست لي غرفة.

ــــ وهذه ؟

ــــ غرفتهم.

ــــ وهذه ؟

ــــ غرفتهم.

ــــ كيف تراني عندهم ؟

ـــــ أنتِ التي جئتِ. خلعتِ قميصكِ وجاءك رجل عارٍ. هذا ليس صديقي ...
ـــــ هذا أنت !
ـــــ لكنني لم أخرج من بيت صديقي.
ـــــ أنتَ لم تخرج، أنا التي جئت إلى آخر فخّ يُنصب لي.
وقفتْ. اغتسلتْ. تلاشت الصّورة.
الدائرة لم تعد في عيني.
زرنا المستر هامت. زرناه وأنا أتساءل "لماذا أزوره ؟" قادني سؤالي فوجدْتُني عنده.
عنده نساء ورجال.
كان المستر هامت شخصيّة المكان، بل كان هو المكان. داعب المستر هامت خدّ قمر. قبّل عنقها. كانت واقفة بجانبي. وضع يده بين فخذيه. "ألهذه الدّرجة لا يتهذّب المستر هامت ؟" رفعت صوتي محتجّاً. لم يمنعني أحد. المكان محروس. لكنّ الحرّاس مستترون. يتركونك تقول ما تريد بصوت عال. فيخرج صوتك مصفى، هادئا، صامتا، مكتوما تماما. يتركونك تفعل ما تريد. فعلت.
لا أحد رأى.
لا أحد سمع.
لا أحد احتجّ.
هربتُ إلى الباحة فتوغّلت في متاهة.
جرَتْ أشياء أخرى كثيرة، من النّوع الذي يجري في الحفلات.
المستر هامت يضحك في كلّ مكان.
لماذا دعانا ؟
وإذا كان لم يَدْعُنَا، كيف وجدنا أنفسنا عنده ؟

أولاد الجدري يتحرّكون
والحكاية تجري أحداثها في دار كوفا

ـــــ أخيراً جاء الطارئ ! قال العينوس.
وقف القطّوس مترنّحاً. بحث عن باب الغرفة، وتأكّد أنه باب، ثم خرج ليفتح باب الخان. لكنه عاد سريعاً :
ـــــ أولاد الجدري يتحرّكون في الباحة !
ازداد الطرق على الباب، فرَمَت العريفة القطوس بآلة القمبري. عاد القطوس إلى الباب ليرى مَن الطارق ثم عاد :
ـــــ إنه شحاذ جائع !

ـــــ أدْخِلْهُ إلى دار كوفا ليأكل أكارع التيس ورأسه. قالت العريفة.
نامت البنيّتان على ركبتي العينوس. عاد القطوس في يده كراع مشوية:
ـــــ تركْتُه هناك مع أولاد الجدري والصبايا السّبع كي يرى ما لا عين رأت.
سألَتْه العريفة :
ـــــ هل اقتربتْ منه الأولى ؟
ـــــ نعم، أجاب القطوس، وجَدَتْه أشعثِ الشّعرِ، كريه الرائحة. فقالت لوصيفاتها : خُذْنَه إلى البركة، واغسلْنهُ وزَيِّنَّهُ ومشّطْنهُ وعَطِّرْنهُ وألْبِسْنَهُ ثوباً من حرير...
ـــــ واحْضِرْنَ الكؤوسَ... أكملت العريفة.
ـــــ وكلَّ ما لذّ وطاب، تابع القطوس، حتّى إن الشحاذ المسكين لم يعد قادراً على التمييز بين الحلم وبين الواقع.
ـــــ "ها أنّني أقرصك لتتأكد" قالت له الثانية.
ـــــ نعم، فتأكد الشحاذ أنه لا يحلم، قال القطوس، لكنّه عاد إلى الشكّ وتساءل "ربّما كنتُ أحلم أنني لا أحلم...".
ـــــ فاقترب من الصّبايا السبع... أضافت العريفة.
ـــــ وبدأ يلمس هذه، ويداعب تلك، ويتأكّد من أنه لا يحلم، بأنه يحلم، بروعة اللحم، حتى كاد يشهق من فرط اللذّة ...
ـــــ وماذا فعل أولاد الجدري ؟ تساءلت العريفة.
ـــــ أحاطوا بالشحاذ والصّبايا السبع وبدأوا يعزفون ويرقصون، ويلبّون طلبات الشحاذ...
عادت العريفة تسأل القطوس :
ـــــ وماذا فعلت الحسناء الثالثة ؟
ـــــ هي أكذبهنَّ، وأشدّهن مكراً وخداعاً. وهي ذات سطوة على الأخريات. ها هي ذي تهمس في أذنه. فماذا عساها تقول له ؟
ـــــ تقول له : أفضل الأوقات عندما تكون المرأة في بداية حمّى، عقب تعب وحركة، بعد مشي وركوب، إثر حمّام، بماء بارد، يسخن الدم ويدفئ المضيق.
فجأة تململ العينوس وقاطع سردهما للحكاية التي تجري أحداثها الآن في دار كوفا، قائلا :
ـــــ هناك خَلْقٌ يُمسكون الآن بقدميَّ، ويصيحون بي حتّى لا أفهمكم...
لم تكترث العريفة لما قاله. التفتت إلى القطوس مجدداً وسألته :
ـــــ ماذا فعلت الصبيّة الرابعة مع الشحاذ ؟
ـــــ سألَتْه : "هل أنتَ حمّال ؟" أجاب : "أنا شحّاذ" عادت وسألته: "هل كنتَ أميراً وأخرجَتْكَ حكايةٌ من مملكتك ؟" أجاب: "ربّما الليلة أكون" واتّكأ على كتفها، فابتعدت عنه ضاحكة حتى اقتربت الحسناء الخامسة...
ـــــ وماذا فعلت الخامسة ؟
ـــــ تركتْه جالساً ووقفت أمامه منثنّية. وعندما وقف... جلستْ.
ـــــ والسادسة ؟

ـــــ مدّت يدها إلى موضع القوس، وتحرّكت مثل رتيلاء في نسيجها، فاهتزّ كل شيء، وأحسّ الشحاذ أنه يهتزّ بدوره في خيوط الغنج والدلال...
ـــــ وماذا فعلت السابعة ؟
استدرك العينوس صمته، مسترجعاً قوّتَه بصرخة عالية، مفاجئة، وقال:
ـــــ مقرفص تحت توتة. يكفي حجرٌ يُلْقي به طفل. تكفي ورقة لتغطّيني. تكفي نسمة لتلغيني...
ـــــ سألتُك عن السابعة، الحسناء السابعة ؟ كرّرت العريفة مخاطبة القطوس.
ـــــ برقّتها ونحافتها وتلويّها، تعاونت مع أصابعه الخشنة ليرفَعْنها، ودَنَتْ من قدميه الفطحاويْن لتحطا بها سَرْوَة بين رياحه القديمة المحمّلة بالملح والغبار.
ـــــ وأخيراً، هل كانت هناك ثامنة ؟ سألته العريفة.
انفجر العينوس مقهقهاً :
ـــــ رياح ثقيلة محمّلة ببخور الزوايا تشدّني إلى ماضٍ، وقطعٌ جارحة تمرّ فوق رأسي...
ـــــ سألتُك عن الثامنة ؛ هل هناك ثامنة ؟ كرَّرت العريفة.
ـــــ تركَتْه قطعةً من نارٍ، تركته مهلوساً، عاجزاً عن وصل أنثى من بني البشر، قال القطوس.
ـــــ وكيف ستنتهي الحكاية ؟ تساءلت العريفة.
هرش القطوس شعر رأسه مفكرّا ثم قال :
ـــــ صارت له عينان أخريان وخمس حواس إضافية : يرى فلا يتقدّم، ويتقدّم، فلا يرى أنه يتقدّم ...
ـــــ هل رَبَطْنَ عصابة على عينيه ؟
ـــــ نعم. لقد فعلن ذلك. بدأ الرقص. أولاد الجدري يتقهقرون إلى الخلف، وهو يتقدم، على إيقاع البندير، في اتجاه حفرة الجمر والرماد، في اتجاه حفرة الجمر والرماد، في اتّجاه حفرة الجمر والرّماد...
ـــــ حتّى إذا طلع الفجر ... قالت العريفة.
رفع العينوس سبّابته نحوي وقال :
ـــــ ها أنتذا تشهد على عالم بدأ ينفصل عنّي !
عادت العريفة تحثّ القطوس :
ـــــ حتّى إذا طلع الفجر ...
ـــــ وجد الشحّاذ نفسه مستلقياً، نصف محترق، في حفرة الجمر والرماد...
ـــــ التفَتَ حوله ...
ـــــ وجد أنه مازال يحيا ...
رفع العينوس سبّابتيْن هذه المرّة، وكرّر بصوت متضائل :
ـــــ ها أنتذا شاهد ! ها أنتذا شاهد ! ها أنتذا شاهد !
عادت العريفة تذكّر القطوس :
ـــــ نعم : وجد أنه مازال يحيا ...

ـــــ حمد ربّه ...
ـــــ لم يجد صبايا ...
ـــــ ولا أقزاماً...
ـــــ ولا أقداحاً ...
ـــــ ولا تفّاحاً ...
ـــــ إلاّ بقايا رائحة ...
ـــــ ودخان.

خلقتَ عالَماً والآن تتخلّى عنه ؟

كانت الصغيرتان في غيبوبة مطلقة، والعينوس يصرّ أن تمكثَا على ركبتيْه. حدّقتُ فيه فوجدته يزداد بعداً وتضاؤلاً. كانت عينه الوحيدة توشك على الإنطفاء. أشرتُ إليه بيدي. فأدرك إشارتي : "اكتملت العلامات من حولي، والحياة على ركبتيَّ. هكذا نحن كما قد ترانا عيون الأحياء."
لمحتُ قمر عارية بين سحب دخانية بينما صوت القطّوس يمزّق أجواء الغرفة. تملّكني صداع لا يقاوم، وبدأ الدّوار "أسْرِعْ إلى البركة وسوف تكون على ما يرام!" وخرجنا معاً. كان الهواء بارداً، منَعشاً. الفجر يرشق خيوطه الأولى. القمر في المحاق. دائرة مظلمة حولها هالة خفيفة، كما تعكسها الأرض.

كل شيء رمادي.
اغتسلتُ في بركة الصبّار المعتمة، فكدت أتجمّد من بردها. لاحظت أنها كفّتْ عن الفوران.
وعندما خرجتُ من البركة متفادياً أظلاف الصبّار، اقتربتُ من قمر لأسألها : "ونحن، الأحياء، أهكذا ترانا عيون الموتى ؟" لكنْ، اللعنة! زلّت قدمي في الطين وارتطم وجهي بظلفة صبّار، فألهَبَته شوَيْكاتها الناعمة " ونحن، الأحياء، أهكذا ترانا عيون الموتى ؟" سألتها مرّة أخرى. لكنها لم تجب.
بحثتُ عنها ثمّ قرّرْتُ العودة إلى الخان.
خيّل إليَّ أنني لمحتها تذرع مساحة ضيقة في هذا الاتجاه. كلاّ، في ذلك الاتجاه. أهيَ التي همست لي بكلمات غير مفهومة؟ كائنات ليلية تفزع وتفرّ من طريقي : "يا قمر ! أنا هنا !" فعادتْ إلى الهمس. لماذا تهمس والمكان خال ؟ "أين أنت ؟ ماذا تفعلين ؟ " ركضْتُ وراءها بعينين ملتهبتين. كأنها خائفة. كأنني أتنفس من عَينيّ فتغيم الرؤية أكثر. لعلّ هذا الاتجاه هو الصحيح ؟
في تلك اللحظة شعرتُ بالأيدي الغليظة تحطّ على كتفيَّ وتعرقل سيري. "هو أنتَ إذاً!" قال أحدهما، وربّما كانا أكثر من إثنين. لم أميّز ملامحهما. "يريد اللّحاق بها

وكأنّه من عالمها" قال الثاني. "مع أنه يعرف أن الأحياء لا يلتقون الموتى !"
أضاف الأوّل. "تعال، نعرقله لنرى ماذا عساه يفعل !" اقترح الثاني. وظلّ أحدهما يدفعني والآخر يتلقاني ثم يعيد الكرَّة، وأنا أكاد أتقيأ أحشائي. وللَحْظَة أخلَيَا سبيلي. لكنهما توقفا فاتحيْن ذراعيهما حولي. خفت مثل ثعلب محاصر. وطفقت أركض حول نفسي في مركز هذه الدائرة الجديدة.
فجأة غمرني شلاّل ضوء! أحسست أن صاعقة باردة، مضيئة، انفجرت فيَّ. قلتُ: "لاشك أنها هيّ، ترعاني ولا تتركني."
غير أن الرّجليْن اقتربا مني، مرّة أخرى، وشرعا يفتّشان جيوبي. ولمّا لم يجدَا شيئا، تحسَّسَا صدري ومعصميَّ، فقرّر أحدهما أن يجرّدني من قميصي. وأصرّ الثاني أن يستولي على سروالي "لا تلتفت الآن، وإلا انطبق عليك فخّ آخر !" قال لي الأوّل وهو يتركني. "هل سمعت ؟ لا تلتفت !" قال لي الثاني وهو يتركني بدَوْره "لن يجديك الإلتفات نفعاً !"

أين الخان ؟
أأخطأتُ العودة أم أنني صرت جزءاً آخر من عالم انفصل عن العينوس؟
خيّل إليَّ أن الصوت الذي استقبلني، وأنا أقصد هذه الأماكن، يودّعني الآن. أهُوَ القزم أم شمس القراميد ؟ "كل ميت يُبعث إلى مكان لا يتكلم فيه إلاّ لغته" وكأنهم لم يكونوا معي "ينبغي أن تجيد لغتك حتى لا يكون انتقالك الآتي مرتبكاً" وكأنّ الحلّ أن أعود إلى كتبي مرّة أخرى؛ ألم تتسبّب بدورها في وصولي إلى هنا؟ "ها ها ها .. خلقت عالماً والآن تتخلى عنه ؟ صرت متلصّصاً متسامياً !" من الذي خلق الآخر ؟ أأنا في الحلم أم في الواقع ؟ "سيكتمل الصمت حولك عمّا قريب، عليك أن تعود إلى أماكن أخرى محتملة لمغالبة النسيان !"

وتلاشى الصوت.
هو ذاته الصوت الذي لا يتكلّم إلا من داخلي، أو من حولي، إذا ما تجاهلته.
أنا ممتلئ الآن ولا أتواصل، كلاّ أنا مفرغ الآن، ولا أجد من ينتشلني بالكلام.

بـــقـــايـــا النّـــار والـــرّمـــاد

لا أدري كم نمت في الخلاء شبه عارٍ تلك الليلة !
أفقت في الصباح مرتعباً، وصدى الأصوات لا يزال يتردّد في رأسي. كانت معالم الخريف قد بدأت ترتسم على الألوان المنسحبة. سرت وحيداً تحت سماء غائمة تعلن عن قطرات أولى غليظة ودافئة. طيور القوبعة تتطاير عن يميني وعن يساري.

جبت تضاريس تلك الأمكنة منطلقاً من خارطة في دماغي جعلتني أجتاز شعاباً وتلالاً موحشة، محاولاً التعرّف على مكان الخان.
كان كلّ ما أراه يبعث فيَّ شعوراً برؤية أماكن مهجورة.
ارتبك في ذهني مفهوم الزّمن.
صرت أقتات من الأعشاب والعساليج البريّة، وأنافس الحيوانات والبرقات في مياهها المتجمّعة هنا أو هناك. طال شعري ونمَت لي لحية كثة. لم أعد أتعرّف على وجهي عندما يتمرأى في مياه ينابيع طارئة، ولا على جسدي الذي تجرّه خطواتي المتثاقلة يوماً بعد يوم.
لقد بلغتُ حالةَ نصف متوحشة.

أذكر تلك الغبطة الباردة التي تملّكتني عندما رأيت مقبرة.
كانت المقابر دائماً من علاماتي الأولى.
تسلّلتُ بين القبور، حيث يثوي قَتْلَى الكومنولث.
كانت قبوراً نظيفة، تدلّ على رعاية متواصلة : تربة حديثة العَزْق تَحُولُ دون نموّ نباتات الرّبّ الطفيلية وعساليجه، رخام ناصع البياض، وزهور نديّة يانعة.
لم أر أحداً. غير أنني تلكّأت حذراً أمام أحد القبور عندما رأيت ثياباً مهترئة بجواره. كانت حالها تجعلك تتخيل أن الموتى يستيقظون ليلاً ويتناوبون على ارتدائها إذا عَنَّ لهم شاغل في عالمنا المرئي، ومع دنوّ الفجر يتركونها على عتبة القبر.
لاشكّ أنها ثياب أحد حرّاس المقبرة أو عمّالها.
تجرأتُ وسترتُ بها عِريي. قلت "ثياب الأموات أفضل من عري الأحياء" كيف تبدو صورتي الآن بشعْرٍ يغزوني في كل موضع، وثياب تسترني بزمن غير زمني ؟
خرجت من المقبرة وتجاوزتها إلى اتّجاهين : قدَّرْتُ أن هذا الاتجاه يؤدّي إلى أرض المستنقعات. ينبغي أن أسلك الاتجاه المعاكس.
بعد قليل تظهر بوادر أولى لرطوبة الزّرع ثم تتلاشى مظاهر الخصب. تلوح برك مائية صغيرة تحتضر فيها اليرقات. ثم أشاهد تينتي البرية، ويفاجئني قزمي سهلون. يقرع سيفي الخشبي فيتوالد منه خمسون قزماً. أتفادى مقارعة الأقزام فتتلاشى كلها. أتسلق التلّة الصخريّة فأشرف على ما يشبه قرية مهجورة وبقايا حيوانات أهلية "لا تحْصِ ممتلكاتهم بل اذهبْ إليهم" يقول لي صوت شمس القراميد.
الخان ! الخان !
يشتدّ نبض قلبي بشعورين : شعور الفقد، وشعور الخوف من فقدان ما قد أحصل عليه بعد قليل. لماذا تغيّرت الملامح ؟ ترى أنا الذي تغيّرت ؟ أعرف سرّ القزم. ينبغي استدراجه إلى الثغرة الوهمية ودفعه إليها. لن أحتاج إلى مساعدة ياقوتة. ها أنذا أقترب من جدران الخان العالية. أدق على ما تبقى من البوابة الخشبية المتداعية. أنتظر. لا يخرج أحد حتى الآن. أأخطأت التعرّف أم أن زمناً مرّ وغيّر كلّ شيء ؟ أنادي قمر، ياقوتة، العينوس، العريفة، شامة، القطوس. لا أحد.

وفجأة أسمع خطوات بعيدة تقترب.
أتبيّن بعضِ ملامح وجهه. يطلّ وفي يده كراع تيس مشوية.
ـــــ أخيراً يا قطوس ! أخيراً وجدتكم !
يلوح الغضبِ على أسارير الرجل الذي فتح الباب للتوّ :
ـــــ هل أنتَ شحّاذ ؟
ـــــ أنا جابر الطرودي !
ويرنّ هذا الإسم بِدَوِيّ غريب في دماغي، مرّ زمن لم أسمعه.
ـــــ لا أعرفك ! ولَم أسمع بهذا الإسم من قبل !
ـــــ هل أحلم ؟
ـــــ تريد أن أقرصك حتى تتأكّد ؟
يهمّ الرجل بالانسحاب خلف الباب فأسرع محاولاً الدخول وراءه. يلتفت نحوي ويأمرني :
ـــــ انتظرْ ! سأبحث لك عمّا يؤكل.
ثم يعود ويسمح لي بالدّخولِ إلى المبنى الذي يبدو مهجوراً من ساكنيه. يصطحبني إلى إحدى الغرف الخالية حتّى من خشب بابها ونوافذها :
ـــــ سأعطيك قليلا من المشوي... لم يبق إلا أكارع التّيس ورأسه، لكنّها كافية لتغذية شحّاذ مثلك لم يتناول لحماً منذ قرون !
ـــــ لستُ شحاذاً، أنا جابر الطرودي.
ـــــ إذا كان هذا هو اسمك، تستطيع أن تكون الشحاذ جابر الطرودي.
ـــــ أين العينوس والصّبّايا ؟ أين الكؤوس؟
ـــــ ومجنون أيضاً ؟
ـــــ ألستَ أنت القطوس ؟
ـــــ اسمعْ ! لن أسمح لك بتكرار هذا اللقب ! عن أي قطّوس تتكلّم؟
ـــــ رجل يشبهك ...
ـــــ ألم أقل لك : لا تعدْ إلى تشبيهي بالقطّوس ؟ أَأَنْتَ شحاذ أم محتال؟ إذا كنتَ محتالاً فأنا أمهر منك في هذه المهنة !
وإذا بغضب جارف يتملّك الرجل، فيرفع إحدى قوائم التيس الساخنة، ويهوي بها على رأسي حتى يُسقطني على بقايا النار والرماد.
ومع إدراكي لقوة بنيَته أخشى أن يصيبني بما هو أسوأ، فأركض برمادي ودخاني، وبما تبقّى من خِرَقِيَ المشتعلة.
أين البركة ؟
أذكر أنّ بركةً كانت توجد هنا !
أين سأطفئ حريقي الآن ؟

ظــلّ أثــرٌ منهــم في داخلي

مازلت قادراً على السير من دون الإضطرار إلى التخفّي. المسالك خالية. لكنْ، ماذا سأفعل بعد قليل عندما أتوغل بين البشر وكلابِهم وأنا على هذه الحال ؟

انهمر مطر خريفيّ دافئ فغسلني. بدأتْ سيول تتشكّل وتنقضّ عليّ من كلّ الاتجاهات. قدماي تغوصان في الوحل. احتميت بسنديانة كبيرة، ومكثت في مرصدي الموحش أراقب عالماً اندثر أمامي، وآخر أسعى إليه تحت أمطار طوفانيّة.

سمعتُ هديراً فبدأت أصيخ السمع، وأتلصّص عليه من وراء سنديانتي كطائر مبلول، لأتعرّف على الضجّة القادمة.

تركتُ السنديانة إلى الدرب الموحل :

ـــــ "مَايْ غادْ !" صاح المستر هامت، هل كنتَ تسبح في هذا الجوّ الممطر ؟

لم أصدّق عينيّ. هل خرجتُ من وهْمٍ إلى آخر ؟

ـــــ من حسن حظي أنني وجدتك، قلتُ، كيف عرفتني ؟

كان القزم يركب إلى جواره معتمراً قبّعة أميركية. أنزل بلور النّافذة وقال:

ـــــ وجدناك نحن !

ـــــ نعم، أضاف المستر هامت، ذهبنا إلى الخان فتهْنَا ولم نهتدِ إليه، مع أنني قِسْتُ المسافة وحدَّدْتُ الموقع من قبل !

ـــــ والقزم ؟ سألتُه من دون أن أكمل.

ـــــ آه، سهلون الرّهيب ! يدّعي أنه الآن في المستقبل بفضل دفعة سابقة من بُنيّة اسمها ... نسيت ... ما اسمها يا سهلون ؟

ـــــ ياقوتة ! قال القزم.

ـــــ وهل تصدّقه ؟ سألت.

ـــــ أصدّق طرافته؛ لِمَ لا ؟ قال المستر هامت مبتسماً.

ـــــ ألم تجد أيّ أثر يدلّ عليهم ؟

ـــــ كلاّ ! وجدتُ شحاذاً تائهاً، هرب منّي راكضاً، ورفض الكلام. أعتقد أنّ مداركه العقلية لم تكن على ما يرام !

ـــــ كان مغبرّاً، مشويّاً، قال القزم.

ـــــ نعم، كانت عليه آثار حروق، أكّد المستر هامت.

ـــــ آه !

ـــــ لكننا التقينا، في محيط المنطقة، شخصاً يركب بغلة، فسألناه عن الخان ...

ـــــ وبِمَ أجاب ؟

ـــــ تحدّث عن مبنى واحد في ذلك الموقع إسمه "المشروع". فهمتُ منه أنه كان مشروع ضيعة فلاحية قبل أعوام، وصُرفت على بنائه فقط، مبالغ طائلة. قال إنه كان مشروعاً لتربية الدواجن وبات مرتعاً لأشباح الليل، وثعابين الظهيرة، واستراحة اللصوص. لكنّ أوصافه تلك، لا تنطبق على الخان الذي كنا نبحث عنه.
تدخّل القزم مازحاً:
ـــــ الرؤية مرصودة لك وحدك !
ـــــ ظلّ أثرٌ منهم في داخلي، قلتُ هامساً.
ولا أدري أكان المستر هامت قد سمعني أم أنّه خمّن ما يدور في خاطري، فقال بين جدّ وهزل :
ـــــ ربّما يأتي، بعد أجيال، مَنْ يضحك على جهلنا! ومن أَدْرَانَا؟ لعلّ هناك مناطق خفيّة في الجغرافيا!
ـــــ وهل تصدّق ذلك ؟ سألته.
ـــــ نقول في لغتنا: "Life, what is it but a dream ?"
ـــــ نعم ؟
ـــــ ألا يخيّل إليك أحياناً أن الحياة مجرّد حلم بينما الحلم هو الحياة؟
سكتُّ فتأمّلني المستر هامت قليلا ثم قال :
ـــــ Sorry ! ، سأعطيك ما يسترك ...
وانتقل إلى مؤخرة السيارة ليناولني بدلة "سفاري" كاكيّة اللون تختلط فيها رائحته بالغبار.
انطلقت السيارة بنا. ترك القزم مقعده الأمامي، المجاور للمستر هامت، وقفز إلى جانبي. حَاوَلت تجاهله. لكنه خاطبني بوقاحته المعتادة:
ـــــ تعال، شاركني في هذه اللّعبة !
عدت إلى تجاهله متعمّداً، فعاد إلى إلحاحه :
ـــ قلت لك تعال شاركني في هذه اللّعبة !
ـــــ لا أريد اللّعب الآن.
كان المستر هامت يسوق سيارة اللاندروفر وهو يدندن لحناً أجنبيّاً ثم يتوقّف عن الغناء ليقول إنّ المطر رائع، ويبتسم كأنه ينتظر من القزم أن يُلحّ عليَّ أكثر:
ـــــ قلتُ لك شاركْني في هذه اللعبة !
قرّرتُ التخلّص من إزعاجه بمعرفة سرّ لعبته على الأقلّ :
ـــــ طيب، ما هي هذه اللعبة الحقيرة ؟
ـــــ إنها لعبة حقيرة فعلاً، قال المستر هامت ضاحكاً.
ـــــ قملة من عندك وقملة من عندي، قال القزم.
ـــــ ماذا ؟
ـــــ قملة من عندك وقملة من عندي !
ـــــ نكتة بايخة، قلت.
ـــــ قملة من عندك وقملة من عندي، كرّر مرّة أخرى.

ـــــ نعم ! صحت فاقداً صبري، وبعد ذلك ؟
ـــــ نرسم دائرة ونضع القملتين في قطبها !
ـــــ لماذا ؟
ـــــ لنرى مَنْ ستسبق قملتُه قملةَ الآخر في الخروج من مركز الدّائرة.
لم أتوصّل حتّى الآن إلى التخلّص من رائحة المستر هامت في البدلة التي أعارني إياها.
ـــــ العبْ معي هذه اللّعبة وأرصد لك كنزي ! قال القزم.
ـــــ كنزك ؟
ـــــ نعم ... كنز المستقبل، سوف يتعتّق في ذلك المكان !
ـــــ لكنه اختفى ...
ـــــ اختفى وبقيت أنت. ربما لأنك الوحيد الحقيقي، وقد تعود مرغماً للبحث عن كنزي !
ـــــ لن ألعب معك ...
ـــــ لن تتوصل إلى فكّ الأرصاد إذاً !
ـــــ أنا لا أشكو من القمل مثلك !
ـــــ لا تدَعْه يستفزّك، إنه يمزح فقط، قال المستر هامت.
تناسى القزم لعبته وغيّر مجرى الحديث :
ـــــ إذاً، هاجمك إثنان من قطّاع الطُّرُق؟ لماذا لم تدفع بهما إلى المستقبل ؟
ـــــ ماذا؟
ـــــ لا تخفْ ! لا تندم على شيء ! هما اللّذان دفعا بك إلى المستقبل !
ـــــ وهل رأيتهما ؟
ـــــ ألم يوصلاك ذات مرّة في شاحنة ألمانية ؟
الملعون ! من أين له كلّ هذا ؟ هل هو قزم حقيقي ؟
ـــــ هل تصدّق أنّه قزم بشري، يا مستر هامت ؟
ـــــ لا يمكن لأيّ قزم أن يكون واقعيّاً، مادمنا نراه كذلك، أجاب المستر هامت، ألا تعرف أنّ في كل قزم خمسين قزما ...؟
وطفق يهتزّ مقهقهاً والقزم يجاريه.

عندما وصلنا إلى مشارف العمران التفتَ نحوي المستر هامت قائلا:
ـــــ اسمعْ، نحن لا نذهب إلى العاصمة الآن، سأُنزلك في محطة سيدي مهيمش، وهناك تستطيع قطع تذكرة لتسافر إلى العاصمة بواسطة القطار.
وفي المحطّة المعزولة ناولني بطاقة تحمل عنوانه وألحّ عليّ:
ـــــ لا تنسَ أن تزورني في العاصمة، مازلتُ أريد تدوين تلك السِّير الشعبيّة، سوف تجدني في انتظارك !
شعرت بالوحشة مرّة أخرى. سألته :

ـــــ ألم تعد تفكّر في العينوس ؟
أجاب مبتسماً :
ـــــ لا تخفْ ! سوف نجده أمامنا كأيّة حكاية تفقد مكانها الأصلي وتنتشر عبر الأزمنة. قد يظهر في المدينة كأيّ قرويّ نازح بعد أن فشل في أرضه. المدينة مرآة ماصّة تبتلع الزّارع والمزروع. فلماذا لا يظهر العينوس هناك أيضاً ؟
ـــــ وماذا عساه يفعل في المدينة ؟
ـــــ قد يبحث عن عين زجاجيّة وربما يتحوّل إلى مهرّب، أو شحاذ لا تنقصه التجربة والحيلة ... لِمَ لا ؟
ـــــ ومَنْ أخبرك بكلّ هذه التّفاصيل ؟
ـــــ ها ها ها ... إذا لم يكن سهلون، فمن المؤكَّد أنه واحد من أتباعه الخمسين !

وقفت في المحطّة أنتظر مجيء القطار المتوجّه إلى العاصمة، متزوّداً بنصائح المستر هامّت، وبدلة المستر هامّت، وسعر تذكرة القطار من المستر هامّت، ومصروف الجيب من المستر هامّت... أليس هذا مبعثاً للخجل ؟
لماذا الشّعور بالخجل ؟ قلت معزّياً نفسي. يريد تدوين السِّيَر الشعبيّة ؟ سوف ألفّقها له كما اتّفق، أو كما أتذكرها على الأقل، من دون جهد كبير. وقد أبيعه سيرتي الذاتيّة أيضاً، إذا وجد فيها علاقة ما بتلك السّيَر ! هو الذي يستر عورتي الآن.
لكنْ ...
آه ... العاصمة !

ومريم،
أين تكون مريم الآن يا ترى ؟
وأنتَ ؟
أنتَ يا طفل المزرعة الذي لا يكفّ عن الركض في أيامي الماضية !
هل أتوصّل ذات يوم إلى التقائِكَ هناك ؟

ربّما بسبب امتلائي بالماضي يُخيفني هذا المستقبل المجهول...

صباح الثلاثاء ١٩٩٢,١٢,٢٩
مساء الخميس ١٩٩٥,١١,٠٢
تونس

محمد علي اليوسفي

* محمد علي اليوسفي من مواليد مدينة باجة بالجمهورية التونسية 3 مارس1950
* متزوج وله أنسي ودانية.
* درس المرحلتين الابتدائية والثانوية بتونس ثم سافر إلى الشرق العربي حيث أتم دراسته الجامعية في جامعة دمشق وتخرج في قسم الفلسفة والعلوم الاجتماعية.
* تابع الدراسات العليا في الاختصاص ذاته بالجامعة اللبنانية خلال الحرب الأهلية.
* وفي الأثناء مارس الترجمة والكتابة والصحافة الثقافية في أبرز الصحف والمجلات السورية واللبنانية والفلسطينية.
* عاد إلى تونس ليستقر بها بعد عشرين عاما أمضى ثمانية منها في جزيرة قبرص.

* أعماله المؤلفة:

أ- في الشعر:
* *حافة الأرض*، دار الكلمة، بيروت 1988.
* *امرأة سادسة للحواس*، دار الطليعة الجديدة، دمشق 1998.
* *ليل الأجداد*، وزارة الثقافة السورية، دمشق 1998.

ب – في الرواية:
* توقيت *البِنْكَا*[جائزة الناقد للرواية] رياض الريس للكتب والنشر، لندن 1992.
* شمس *القراميد*،[جائزة كومار:الريشة الذهبية] دار الجنوب، تونس 1997.
* *مملكة الأخيْضَر*، دار الطليعة الجديدة، دمشق، سوريا 2001.
* *بيروت ونهر الخيانات، دار الفارابي، بيروت 2002*
* *دانتيلا، دار الفارابي*، بيروت ٢٠٠٥.
* *عتبات الجنة، دار الفارابي، بيروت 2007*

ج – في النقد:

* *أبجدية الحجارة*، بيسان برس، نيقوسيا، قبرص، 1988 .

* أعماله المترجمة:

أ ــ شعر:

* حرية *مشروطة*، أوكتافيو باث، الدار العالمية، بيروت 1983.
* مدائح *النور*، مختارات من الشعر اليوناني، دار الملتقى، ليماسول، قبرص١٩٩٤.

ب ــ رواية:

* حكاية بحار غريق، غابرييل غارسيا ماركيز، دار ابن رشد، بيروت 1980 .
* خريف *البطريرك*، غابرييل غارسيا ماركيز، دار الكلمة بيروت1981 .
* خريف *البطريرك*، طبعة جديدة، دار المدى، دمشق ٢٠٠٥.
* *البابا الأخضر*، ميغيل أنخل استورياس، دار التنوير، بيروت1981 .
* *نارایاما*، شيتشيرو فوكازاوا، دار التنوير، بيروت 1982 .
* مملكة *هذا العالم*، أليخو كاربنتييه، دار الحقائق، بيروت 1982 .
* *البيت الكبير*، ألفارو سيبيدا ساموديو، دار منارات، عمان 1986 .
* *ليلة طويلة* جدا، كريستين بروويه ، دار الجنوب، تونس 1994.
* بلزاك والخياطة الصينية الصغيرة، داي سيجي، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، ٢٠٠٤

ج ــ سيرة :

* *المنشق*، سيرة نيكوس كازنتزاكي بقلم زوجته، دار الآداب، بيروت 1994 .

د ــ دراسات :

* بدايات *فلسفة التاريخ البورجوازية*، ماكس هوركهايمر، دار التنوير، بيروت1981
* *بلزاك والواقعية الفرنسية*، جورج لوكاش، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس 1985.
* نظرية الدين، جورج باتاي، دار معد، دمشق ٢٠٠٧.

هــ- سينما:

* الثورة الفرنسية في السينما، المؤسسة العامة للسينما، دمشق، ٢٠٠٣

* قرن من السينما الفرنسية، المؤسسة العامة للسينما، دمشق، ٢٠٠٥

و ــ رحلات

* من تونس إلى القيروان، غي دي موباسان، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٤

العنوان الإلكتروني:
yousdali@yahoo.fr
yousfimedali@gmail.com